الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور بالجلفة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ و علم الآثار

رحلة الشيخ محمد بن علي السنوسي وآثارها (1202 -1276 هـ) - (1787 – 1859م)

مذكرة معدة لنيل شهادة الماستر

التخصص : تاريخ المقاومة والحركة الوطنية الجزائرية

إعداد الطلبة
- شريفة عبد اللاوي
- توفيق عراس

إشراف الدكتور
الشافعي درويش

أعضاء اللجنة	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة
السويسي محمد الصغير		رئيساً	جامعة الجلفة
الشافعي درويش		مشرفاً ومقرراً	جامعة الجلفة
حليس عبد القادر		ممتحناً	جامعة الجلفة

السنة الجامعية : 2025-2026/ 1447- 1448هـ

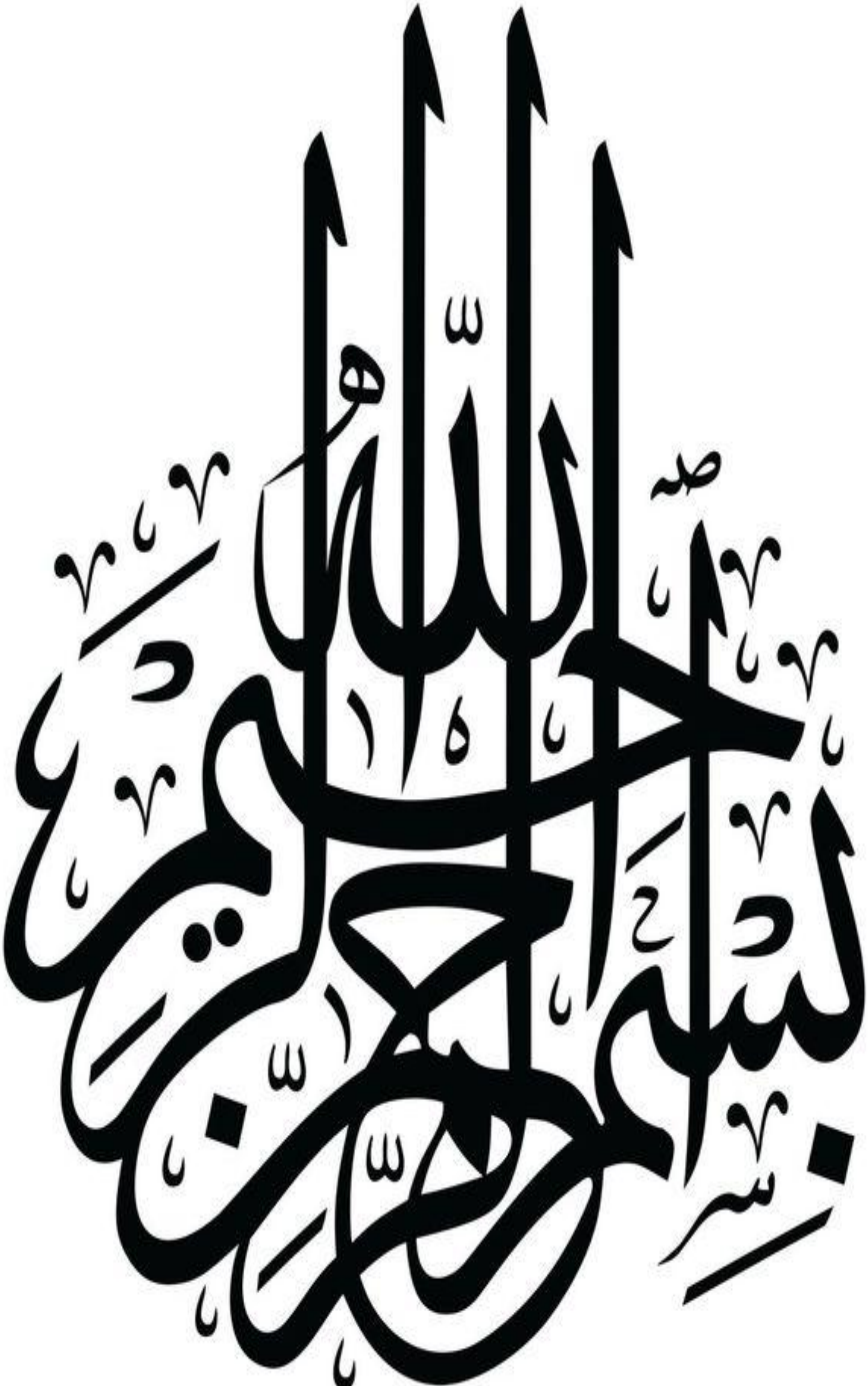
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

بكل فخر وامتنان، أهدي ثمرة هذا الجهد

إلى زوجتي و اولادي تقديراً لما قدموه لي من تضحيات

واهتمام، والتي كانت لي السند والدعم في كل مراحل حياتي

الدراسية ووقفوا إلى جانبي بالصبر والتشجيع حتى وصلت إلى

هذه اللحظة.

أسأل الله أن يحفظهم ويديم عليهم الصحة والسعادة،

وأن يكون هذا النجاح مصدر فخر وفرح لهم دائماً.

توفيق عراس

الإهداء

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه أهدي ثمرة جهدي المتمثلة في مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر

الى من وهباني الحياة الى أمي الغالية رحمها الله

و إلى أبي الغالي حفظه الله وإلى من داعب أناملي الصغيرة الضعيفة وعلمها رفع القلم وغرس فيها حب الدين والعلم والوطن إلى معلمي الغالي دباش إبراهيم حفظه الله ورعاه وإلى ابنتي الغالية وكل أفراد أسرتي وإلى من شاركني هذا العمل وكل من ساعدني ولا أنسى زملائي وأساتذتي

شريفة عبد اللاوي

الشكر

أولاً وقبل كل شيء، نحمد الله جل جلاله على توفيقنا

ونتقدم بشكرنا للأستاذ على اشرافه علينا وعلى مجهوداته المبذولة

كما نقدم شكرنا لأعضاء اللجنة ولمن قدم لنا يد العون

قائمة المختصرات

المختصر	**المعنى**
ط	طبعة
ج	جزء
د.م	دون مكان نشر
د.ت	دون تاريخ نشر
د.د	دون دار نشر
تح	تحقيق
تق	تقديم
ص	صفحة
ص.ص	من صفحة إلى صفحة
هـ	هجري
م	ميلادي

مقدمة

شكلت الإمبراطورية العثمانية لقرون مديدة حامية الإسلام والمسلمين، بيد أنها بدأت تشهد تراجعاً ملحوظاً مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر الميلادي، وهو ما أسال لعاب القوى الاستعمارية الأوروبية للسيطرة على أقاليمها، لا سيما في شمال إفريقيا.

وفي هذا المناخ المشحون بالاضطرابات السياسية والتحولات الاجتماعية، تضافر الجمود الفكري مع الفساد السياسي ليضع الأمة أمام منعطف تاريخي.

شهد المغرب العربي بزوغ الحركة السنوسية على يد الإمام المصلح محمد بن علي السنوسي، الذي حمل على عاتقه هموم الأمة، مؤسساً دعوة إسلامية شاملة مستمدة من الكتاب والسنة، انطلقت من ليبيا لتعمّ شمال إفريقيا والصحراء الكبرى.

الإطار الزماني للموضوع

يتمثل الإطار الزماني لهذا البحث في الفترة المفصلية الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر (ميلاد الإمام سنة 1787م) إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وهي المرحلة التي تزامنت مع ضعف التواجد العثماني في الجزائر وبدايات الغزو الفرنسي، وشهدت تشكل وبزوغ الطريقة السنوسية كقوة دينية واجتماعية وسياسية.

دوافع اختيار الموضوع

تعددت الأسباب التي دفعتنا للبحث في شخصية الإمام السنوسي وحركته، ومن أبرزها:

المكانة المركزية لمحمد بن علي السنوسي كأحد أعمدة اليقظة الإسلامية وأبرز المفسرين المحدثين في عصره.

الرغبة الشخصية في سبر أغوار هذا الفكر الإصلاحي، مشفوعة بتوجيه الأستاذ المشرف، لقلة الدراسات التي تتناول الجوانب التكوينية للإمام بعمق.

إبراز الدور الجهادي والسياسي للحركة في مواجهة الاستعمار.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على المشروع الإصلاحي للسنوسي، وكيف استطاع المزاوجة بين التربية الروحية والعمل الميداني (نظام الزوايا)، كما تبرز الدراسة كيفية انتقال الحركة من المحلية إلى العالمية، ودورها في الحفاظ على الهوية الإسلامية في القارة الإفريقية.

إشكالية البحث

يتمحور البحث حول إشكالية رئيسية مفادها:

ما هي المرتكزات الفكرية والمنهجية للمشروع الإصلاحي عند الإمام محمد بن علي السنوسي، وكيف انعكست هذه المرتكزات على واقع المجتمع والدولة في المغرب العربي والمشرق؟

وينبثق عن هذه الإشكالية التساؤلات الفرعية التالية:

-من هو محمد بن علي السنوسي وكيف ساهمت نشأته في الجزائر ورحلته إلى فاس في صقل شخصيته؟

-ما هو الدور الذي لعبته رحلته إلى الحجاز وملازمته للشيخ أحمد بن إدريس في تشكيل منهجه المستقل؟

-كيف نجح نظام الزوايا في تحقيق الاستقرار الاجتماعي والنهضة الاقتصادية والجهادية في ليبيا والصحراء الكبرى؟

-فيما تتمثل الآثار السياسية والتعليمية التي تركتها الحركة السنوسية كنموذج للإصلاح الشامل؟

منهج الدراسة

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي لتتبع مسار حياة الإمام السنوسي وتحليل الأحداث وتسلسلها الزمني، كما استعنا بـ المنهج الوصفي التحليلي لتشخيص أفكاره الإصلاحية، وتحليل أبعاد مشروعه الفكري والسياسي، ووصف البناء التنظيمي لشبكة الزوايا السنوسية.

الدراسات السابقة

اعتمدت الدراسة على مجموعة من المذكرات والأطاريح الأكاديمية التي قاربت الموضوع من زوايا مختلفة، ومنها:

مذكرة سعود دحدي (2010م) بعنوان البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية، وقد أفادتنا في فهم الدور العسكري للحركة في مواجهة فرنسا وإيطاليا.

مذكرة لوصيف عائشة (2018م) بعنوان نشاط الحركة السنوسية في طرابلس الغرب، والتي ركزت على التغلغل الاجتماعي والسياسي في الإقليم الليبي.

مذكرة عتامنة نجاة ودموش لامية (2021م) بعنوان شخصية محمد بن علي السنوســـي وفكره الإصلاحي، وهي دراسة جامعة تناولت السيرة الذاتية والآثار الفكرية للإمام

خطة الدراسة

جاء البحث في مقدمة و أربعة فصول وخاتمة:

الفصل الأول: مرحلة التكوين في المغرب العربي (1787 – 1824م)

المبحث الأول: النشأة والتعليم في الجزائر

المبحث الثاني: الرحلة إلى فاس

المبحث الثالث : الرحلة إلى مسعد

الفصل الثاني: الرحلة إلى المشرق والمشروع الإصلاحي (1824 – 1841م)

المبحث الأول: الطريق إلى الحجاز

المبحث الثاني: الإقامة في الحجاز وتأسيس أول زاوية

الفصل الثالث: الاستقرار في ليبيا

المبحث الأول: العودة من الحجاز وأسباب اختيار برقة

المبحث الثاني: تأسيس الزاوية البيضاء (أم الزوايا) وآثارها

المبحث الثالث: جهود السنوسي في الإصلاح بين القبائل

الفصل الرابع: آثار الحركة السنوسية وخصائص فكر الشيخ

المبحث الأول: خصائص الحركة السنوسية

المبحث الثاني: فكر السنوسي، شخصيته، ومؤلفاته، وفاته

عرض ونقد المصادر

تنوعت المادة العلمية لهذا البحث بين مصادر معاصرة ومراجع تحليلية، ويمكن تصنيف أهمها كالآتي:

أحمد صدقي الدجاني (الحركة السنوسية) يعد من أوثق المراجع الحديثة؛ حيث تميز بالحياد الأكاديمي والعمق في تتبع الجذور التاريخية للحركة، وأفادنا بشكل أساسي في توثيق رحلات الإمام وتطور دعوته.

محمد فؤاد شكري (السنوسية دين ودولة) مصدر رصين ركز على الجوانب التنظيمية والسياسية، وقد استفدنا منه في فهم كيفية تحول الزوايا إلى شبه دولة داخل الدولة العثمانية.

علي محمد الصلابي (الثمار الزكية للحركة السنوسية) تميز بتقديم رؤية شرعية ومنهجية للفكر السنوسي، وكان مرجعاً أساسياً في تحليل الخطاب الإصلاحي والتربوي للإمام.

أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) وفّر لنا السياق الثقافي والبيئة العلمية التي نشأ فيها السنوسي في الجزائر، وساعدنا في نقد الإنتاج الفكري للإمام وتصنيفه ضمن الحركات التجديدية.

أحمد الشريف الزهار (مذكرات) يُعد من أهم المصادر الأولية والسياسية التي أرخت لأواخر العهد العثماني في الجزائر (1754-1830م). تكمن قيمة هذا المصدر في المكانة الإدارية لصاحبه كـ نقيب لأشراف الجزائر، وكتابته لدى الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر، مما أتاح له الاطلاع على الوثائق الرسمية وعقود القضاة والمراسلات الدولية.

تميز الزهار بمنهجية تقوم على الرصد الكرونولوجي للحكام (الدايات)، والاعتماد على المعاينة الشخصية للأحداث ورغم استخدامه لبعض الألفاظ العامية وبساطة أسلوبه، إلا أنه اتسم بالدقة والتحري، حيث كان يذيل أخباره بعبارة والله أعلم عند الشك

صعوبات الدراسة

واجهت الدراسة بعض التحديات منها تشعب المصادر وتكرار المعلومات التاريخية في بعض المراجع، بالإضافة إلى صعوبة الإحاطة بكافة أبعاد الشخصية (الفقيه، الصوفي، الفارس، والقائد الإداري) في حيز واحد، ونقص بعض المادة العلمية المتعلقة بتفاصيل معينة في بدايات التأسيس.

مرحلة التكوين في المغرب العربي
(1787 – 1824م)

المبحث الأول: النشأة والتعليم في الجزائر

المبحث الثاني: الرحلة إلى فاس

المبحث الثالث : الرحلة إلى مسعد

شكلت الفترة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي مرحلة مفصلية في تاريخ المغرب العربي، حيث تزامنت مع ضعف التواجد العثماني في هذا المناخ المشحون بالاضطرابات السياسية والتحولات الاجتماعية، نشأ الإمام محمد بن علي السنوسي، و لم تكن نشأته مجرد صدفة تاريخية، بل كانت إعداداً ربانياً لزعيم مصلح سيحمل على عاتقه هموم الأمة.

سنتناول في هذا الفصل الجذور الأولى لهذه الشخصية الفذة، بدءاً من بيئته الأسرية في الجزائر، مروراً بمراحل تعليمه الأولية، وانتهاءً برحلته المحورية إلى فاس التي صقلت معارفه ورسخت منهجه العلمي والروحي قبل انطلاقه نحو المشرق.

المبحث الأول: النشأة والتعليم في الجزائر

أولا : نسبه ومولده

نسبه:

هو محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة. ينتهي نسبه إلى الأدارسة، وتحديداً إلى عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. [1]

وقد اشتهر بلقب السنوسي نسبة إلى جده الرابع السيد محمد بن عبد القادر الذي نزل على قبيلة بني سنوس بتلمسان فنسب إليها تبركاً، كما يُلقب بـ الخطابي نسبة إلى جده خطاب بن علي، ويضاف إليه لقب الإدريسي الحسني توثيقاً لنسبه الشريف[2].

مولده:

كان مولد الإمام السنوسي في صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 1202هـ، الموافق لـ 22 ديسمبر 1787م.

وقد ولد في منطقة الواسطة بضاحية ميثا التابعة لمدينة مستغانم بالغرب الجزائري، وتحديداً في دوار طرش (الذي تعرف عائلته به حتى الآن بعائلة الأطرش).

---

[1] محمد الطيب الأشهب، السنوسي الكبير، مطبعة محمد عاطف، القاهرة ، 1994، ص 7.

[2] أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1967، ص 36 ، عتامنة نجاة ودموش لامية، شخصية محمد بن علي السنوسي وفكره الإصلاحي، مذكرة ماستر، جامعة البويرة، 2015/2014، ص 34..

وكان لتزامن مولده مع ذكرى المولد النبوي الشريف وقع خاص في نفوس أهله، فتفاءلوا بهذا التوافق الزمني وسموه مجمداً تيمناً وتبركاً باسم النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم[1].

ثانيا : الظروف المحيطة بنشأته

نشأ الإمام السنوسي يتيماً، فقد توفي والده السيد علي بن السنوسي – الذي كان يجمع بين العلم والصلاح والفروسية – وهو لا يزال طفلاً صغيراً لم يتجاوز السنتين من عمره. هذا اليتم وضعه في سياق تربوي خاص استدعى رعاية بديلة لتعويض غياب الأب[2].

عاصر الإمام السنوسي في بدايات حياته بالجزائر مرحلة البعث الجديد في حركة التدوين التاريخي التي قادها علماء عصره مثل الزهار وأبو راس الناصري، وهي المرحلة التي انتقلت فيها النخبة الجزائرية من الركود الفكري إلى الجدية في تسجيل وقائع الأمة لمواجهة التحديات الاستعمارية القادمة [3]

[1] علي محمد محمد الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 2005، ص 25، محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 7، يوسي الهواري، الشيخ محمد بن علي السنوسي وكتابه إيقاظ الوسنان، المجلة الجزائرية للمخطوطات، جامعة وهران ، ص 40.

[2] محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق ، ص 9، ميلود ميسوم، "محمد بن علي السنوسي: منابع علمه ومنهج طريقته"، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 20، جوان 2018، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف ، ص 135.

[3] أحمد الشريف الزهار ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1754-1830م)، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.، ص 178

كفالة العمة السيدة فاطمة :

بعد وفاة والده انتقلت كفالته إلى عمته السيدة فاطمة ، التي كانت شخصية استثنائية في عصرها، كانت السيدة فاطمة من فضليات أهل زمانها، متبحرة في العلوم، منقطعة للتدريس، يحضر مواعظها الرجال [1] .

لقد لعبت هذه العمة الدور الأبرز في التكوين النفسي والعقدي للطفل محمد بن علي؛ فقد تولت تربيته وتثقيفه بنفسها، وأشغلته بعلم العقائد والتوحيد وهو في سن مبكرة جداً، وذلك مباشرة بعد حفظه للقرآن الكريم، حيث يُذكر أنه أتم حفظ القرآن وهو لم يتجاوز السابعة من عمره. ظلت ترعاه وتغذيه بالمعارف حتى وفاتها سنة 1212هـ (1797م) وهو في سن العاشرة تقريباً.

كفالة ابن عمه الشارف[2] :

بعد وفاة عمته، انتقلت كفالته إلى ابن عم له يُدعى الشارف ، وكان هو الآخر رجل علم وفضل، فتابع العناية به ووجهه نحو استكمال تحصيله العلمي، فدرس عليه الفقه والحديث والتصوف، مما ضمن استمرار المسار التعليمي للسنوسي دون انقطاع[3].

ثالثا : تعليمه ومشايخه

تميزت المرحلة الجزائرية من حياة السنوسي بالتنقل بين حواضر العلم في الغرب الجزائري، حيث لم يكتفِ بما حصله في بيته، بل سعى إلى العلماء في مدنهم.

[1] عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 35، محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 9.

[2] الشارف هو الشيخ الشارف بن العربي، وهو ابن عم وكفيل مؤسس الطريقة السنوسية الشيخ محمد بن علي السنوسي.تكفل به في الجزائر بعد وفاة والديه وتولى تربيته والإشراف على تعليمه في سنواته الأولى، قبل أن ينطلق السنوسي في رحلاته العلمية ويؤسس الحركة.

[3] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 135.

التعليم في مستغانم ومازونة:

بدأ السنوسي رحلته العلمية في مسقط رأسه مستغانم ، حيث حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم الرسم والضبط على يد ابن عمه الشيخ محمد السنوسي. ثم جلس إلى شيوخ مستغانم الكبار، ومن أبرز من تتلمذ عليهم في هذه المرحلة:

–الشيخ محيي الدين بن شهلة[1].

–الشيخ محمد بن أبي زوينة.

–الشيخ عبد القادر بن عمور.

–الشيخ محمد القندوز (المستغانمي) [2] وكان من جهابذة العلماء، وقد قتله حاكم الجزائر (باي وهران/الجزائر) حسن باشا لاحقاً سنة 1829م، وكان لاستشهاده أثر في نفس السنوسي.

وفي أوائل سنة 1806 م ، انتقل إلى مدينة مازونة (التي كانت عاصمة بايلك الغرب سابقاً ومركزاً علمياً)، ومكث بها سنة كاملة تتلمذ فيها على يد علماء أجلاء، أبرزهم:

أبو راس الناصري المعسكري (الحافظ والمؤرخ الشهير).

الشيخ أبو طالب المازوني[3].

[1]الشيخ محيي الدين بن شهلة هو عالم دين وفقيه جزائري بارز، اشتهر في أوائل القرن التاسع عشر بكونه أحد كبار علماء المدرسة الجزائرية، لاسيما في مدينتي مستغانم ومازونة، و عُرف بعلمه الواسع في الفقه والحديث والتصوف، وكان مرجعاً ووجهاً بارزاً في منطقة الغرب الجزائري، و كان له فضل التعليم والتأطير لعدد من كبار قادة ومفكري الجزائر في تلك الحقبة، ومن أبرز تلاميذه الشيخ محمد بن علي السنوسي (مؤسس الطريقة السنوسية) الذي تتلمذ على يده في مازونة ومستغانم قبل أن يرتحل إلى فاس.

[2]محمد بن قندوز المستعانمي خريج مدرسة مازونة ثم الأزهر الشريف وتلميذ الدردير

[3]الشيخ أبو طالب المازوني (محمد بن علي بن الشارف) هو فقيه وعالم دين جزائري بارز، ينحدر من حاضرة العلم مازونة (ولاية غليزان)، عاش في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري (توفي حوالي 1200 هـ)، ويُعد من أبرز أعلام المدرسة المازونية. يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 41، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 2005، ص 25.

الرحلة إلى تلمسان:

رحل السنوسي إلى تلمسان حاضرة العلم العريقة في المغرب الأوسط بعد أن أنهى تعليمه في مازونة أقام بها ما يقارب السنة، ينهل من علمائها ويتعمق في الفقه المالكي وأصول الدين. كانت هذه المرحلة بمثابة التمهيد للانتقال الأكبر نحو جامعة القرويين، حيث تشبع بالثقافة المغاربية الأصيلة[1].

التكوين والفروسية:

لم يقتصر تكوين السنوسي في الجزائر على الجانب العلمي فقط، بل نشأ في بيئة تحترم القوة والفروسية، فقد كان والده يجمع بين العلم والفروسية والرماية، ونشأ السنوسي على هذا النهج، حيث يذكر حفيده الملك إدريس أن جده كان يقسم يومه إلى نصفين: أحدهما للعلم والآخر للفروسية . هذه التنشئة الجسدية ستكون لها أثر بالغ لاحقاً في البعد الجهادي لحركته.

[1] عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 36.

المبحث الثاني: الرحلة إلى فاس

لم تكن الرحلة في طلب العلم مجرد تقليد أكاديمي في العالم الإسلامي، بل كانت ضرورة لاستكمال بناء الشخصية العلمية. وبعد أن استنفد الإمام السنوسي ما عند علماء الغرب الجزائري، تاقت نفسه إلى فاس ، عاصمة الدولة العلوية والحاضرة العلمية الأبرز في المغرب الإسلامي آنذاك.

و يمثل هذا المبحث تحليلاً لهذه المحطة المفصلية التي استمرت لسنوات، وشكلت المنعطف الأهم في تكوينه الفقهي والصوفي قبل هجرته للمشرق.

أولا : فاس ودوافع الرحلة

لم تكن رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس مجرد سفر عابر، بل كانت نقطة تحول محورية في تكوينه الفكري والروحي. انتقل السنوسي من بيئته المحلية في الغرب الجزائري إلى عاصمة الدولة العلوية في المغرب الأقصى سنة 1220هـ / 1805م، تحفزه دوافع مركبة بين طموح علمي وهروب من واقع سياسي مضطرب.

مكانة فاس العلمية:

كانت فاس تمثل كعبة العلم في بلاد المغرب في مطلع القرن التاسع عشر ، وذلك بفضل وجود جامع القرويين الذي كان بمثابة جامعة كبرى تؤمها الوفود من كل حدب وصوب. كانت فاس في عهد السلطان سليمان العلوي تشهد حراكاً علمياً وتجاذبات فكرية بين التيارات الصوفية والنزعات السلفية الإصلاحية، مما جعلها بيئة خصبة لطالب نبه مثل السنوسي[1].و ذلك للعوامل التالية :

[1]أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 42، يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 42.

- كانت فاس تحتضن جامع القرويين الذي لم يكن مسجداً للصلاة فحسب، بل جامعة إسلامية عريقة تؤمها الوفود من كل حدب وصوب. كانت الدراسة فيه تتيح للسنوسي الاحتكاك بكبار علماء العصر الذين يمثلون أسانيد عالية في الحديث والفقه والتصوف.

- كانت فاس في عهد السلطان مولاي سليمان (الذي كان عالماً وفقيهاً) تموج بتيارات صوفية متعددة (مثل التيجانية، الناصرية، والوزانية) إلى جانب المدرسة الفقهية المالكية الرصينة.

أتاح هذا التنوع للسنوسي دراسة التصوف بعمق، وفي الوقت نفسه دراسة علم الحديث، مما ساعده لاحقاً في بلورة منهجه القائم على التصوف السني المنضبط بالكتاب والسنة[1].

دوافع الرحلة:

غادر السنوسي الجزائر متجهاً إلى فاس سنة 1220هـ / 1805م. ويمكن إجمال دوافع هذه الرحلة في نقطتين:

الدافع العلمي :الرغبة في الاستزادة من العلم والالتقاء بكبار العلماء في جامع القرويين، حيث لم يكن يرى في بقائه في الجزائر ما يشفي غليله العلمي بعد أن أخذ عن جل علمائها.

الدافع السياسي :اضطراب الأوضاع في الغرب الجزائري (وهران وتلمسان) تحت الحكم العثماني، حيث هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك ، وقام باي وهران بقتل بعض شيوخ الطوائف الصوفية (الدرقاوية)، مما دفع الكثير من الأهالي وطلبة العلم للهجرة نحو المغرب الأقصى[2].

---

[1]يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 42.

[2]ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 136.

لم تكن فاس مجرد محطة عبور، بل مكث فيها السنوسي حوالي 7سنوات، و هناك نضجت شخصيته، وتحول من طالب علم إلى مدرس في جامع القرويين، وبدأ يمارس الدعوة والإصلاح، بل وحاول مناصحة السلطان مولاي سليمان نفسه، مما سبب له بعض المتاعب السياسية لاحقاً وعجل برحيله نحو المشرق (الحجاز)[1].

الشيوخ في فاس :

تتلمذ السنوسي في هذه المرحلة على يد فطاحل العلماء، ومن أبرزهم:

-أبو عبد الله محمد بن الحاج :فقيه مالكي كبير.

-الطيب الكيراني :من كبار علماء ذلك الوقت.

-حمدون بن الحاج :الذي أخذ عنه الأدب واللغة.

كما انفتح السنوسي في فاس على علوم لم تكن شائعة بكثرة في بيئته الأولى، مثل علوم الفلك والميقات (الهيئة) والرياضيات.

ثانيا : دراسته وتدريسه في جامع القرويين

مرحلة التحصيل والتتلمذ:

مكث الإمام السنوسي في فاس مدة طويلة تقدرها المصادر بسبع أو ثماني سنوات (من حوالي 1805م إلى 1814/1815م)، خلال هذه الفترة انكب على الدراسة في جامع القرويين، ولم يقتصر تحصيله على العلوم الشرعية التقليدية، بل شملت دراسته:

العلوم الدينية: التفسير، الحديث، الفقه، التوحيد.

[1]ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 136.

العلوم العقلية والعصرية: المنطق، الهندسة، الحساب، الهيئة (الفلك)، والطبيعة. تتلمذ على يد نخبة من جهابذة علماء المغرب، منهم:

الشيخ حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج (ت 1232هـ).

الشيخ الطيب الكيراني (ت 1227هـ).

الشيخ محمد بن عامر المعواني.

الشيخ أبو بكر الإدريسي[1].

بروزه كعالم ومدرس:

لم يلبث السنوسي طويلاً في صفوف الطلاب حتى ارتقى منصة التدريس. فقد تحصل على المشيخة الكبرى ، وأصبح مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس. نال شهرة واسعة وتألق نجمه، فأقبل الناس عليه لما رأوا من صلاحه وورعه وسعة اطلاعه وغزارة علمه .

لم يكن تدريسه مجرد تلقين، بل كان يمزج العلم بالوعظ، والدعوة إلى إصلاح حال المسلمين، الأمر الذي ميز حلقاته وجذب إليه الأنظار[2].

ثالثا : أثر رحلة فاس في ترسيخ منهجه الفقهي والصوفي

تعتبر مرحلة فاس البوتقة التي انصهرت فيها معارف السنوسي لتشكل شخصيته المستقلة، وتميزت بجمعها بين الفقه المالكي الرصين والتصوف السني المنضبط.

---

[1] يوسي الهواري، نفس المرجع ، ص 42، ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 136.

[2] محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 13، يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 42.

تكوينه الفقهي (المالكية والاجتهاد):

رسخت فاس قدم السنوسي في المذهب المالكي، حيث تضلع في ذلك باعتبار أنه المذهب السائد في معظم شمال إفريقيا . ومع ذلك، لم يكن السنوسي مقلداً جامداً، بل اطلع على فقه المذاهب الأخرى، وبدأت تتبلور لديه نزعة اجتهادية تدعو إلى العمل بالكتاب والسنة ونبذ التعصب المذهبي، وهو ما سيظهر جلياً لاحقاً في كتبه[1].

تشبعه بالمنهج الصوفي:

كانت فاس موئلاً للطرق الصوفية وميداناً خصباً لنشاطها . استثمر السنوسي وجوده هناك للتعرف على مختلف المشارب الصوفية، فتردد على حلقات الذكر وأخذ العهود عن مشايخ طرق متعددة، منها:

-الطريقة التيجانية.

-الطريقة الناصرية.

-الطريقة الدرقاوية.

-الطريقة الحبيبية.

لكنه تميز بمنهج نقدي فريد؛ إذ نجح نجاحاً كبيراً في تحقيق التوازن... فلم يغلُ في صوفيته ولم يغرق في شطحاتها... بل زاوج بين دراستيه واتجاهيه فأكسب صوفيته طابع السنة ولجمها بحدود الشرع . هذا التوجه السلفي-الصوفي كان حجر الأساس الذي سيبني عليه طريقته السنوسية لاحقاً[2].

---

[1] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 136.

[2] سعود دحدي، البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر(أوروبا – مغرب)، الجزائر، 2009، ص 12.

ميلود ميسوم، محمد بن علي السنوسي: منابع علمه، ص 137.

رابعا : مغادرته فاس

كان السنوسي يكثر من الموعظة الحسنة في دروسه ، ويدعو إلى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس هذه الدعوة ذات البعد الاجتماعي والسياسي الضمني لفتت انتباه حكومة السلطان مولاي سليمان.

خشيت السلطات من أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية قد تعصف بالسلطنة ، خاصة وأن السنوسي ينتسب للأدارسة (الذين حكموا المغرب سابقاً)، نتيجة لذلك شددت الحكومة في مراقبة السيد ، وبدأت بوضع العراقيل أمامه.

على الرغم من النجاح العلمي الكبير الذي حققه الشيخ محمد بن علي السنوسي في فاس، حيث تمكن من الحصول على المشيخة الكبرى وعُيّن مدرساً بالجامع الكبير (القرويين)، واكتسب ثقة العامة بسرعة هائلة، إلا أن هذا الصعود السريع والمنهج الإصلاحي الذي تبناه بدأ يثير حفيظة السلطة الحاكمة.

لقد تميزت دعوة السنوسي في دروسه بالتركيز على الموعظة الحسنة ، ولم يكتفِ بالجانب النظري للعلم، بل كان يدعو صراحة إلى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر ، هذه الدعوة الشاملة التي دمجت بين الإصلاح الديني والاجتماعي لم تثمر ثمرتها المرجوة في بيئة السلطنة آنذاك، بل على العكس، تنبهت حكومة السلطان مولاي سليمان إلى خطورة هذا الخطاب.

خشيت السلطات المغربية من أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية قد تعصف بالسلطنة ، وذلك استناداً إلى الخبرة التاريخية في بلاد المغرب حيث كانت العادة أن تبتدئ الحكومات في هذه الديار أولاً بالمشيخة والإرشاد ثم تنتهي بالحكم والسلطان [1]

[1] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 137.

وزاد من توجس السلطان مولاي سليمان وحكومته عامل آخر بالغ الأهمية، وهو نسب السنوسي. فالشيخ ينتسب إلى الأدارسة (الأسرة التي حكمت المغرب سابقاً)، بالإضافة إلى علمه وشرفه، مما جعل السلطان ينظر إلى اعتبارات النسب ويخشى من مزاحمته على السلطة أو أن يشكل قطباً سياسياً منافساً يستند إلى الشرعية الدينية والنسب الشريف [1]

نتيجة لهذه الهواجس شددت الحكومة في مراقبة السيد وبدأت في التضييق عليه ووضع العراقيل في طريقه، مما جعل السنوسي يدرك بحسه السياسي وذكائه أن الأبواب قد أغلقت أمامه في فاس. [2]

قرر الشيخ مغادرة فاس متجهاً صوب المشرق، وكانت مغادرته سنة 1235هـ / 1819م ، قاصداً الحجاز لأداء فريضة الحج والبحث عن بيئة أرحب لنشر دعوته الإصلاحية، لتنتهي بذلك مرحلة التكوين المغاربي، وتبدأ رحلة البحث عن آفاق أوسع في المشرق العربي.[3]

---

[1] عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 42.
[2] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 42.
[3] محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، بيروت، 1948، ص 14، يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 42.

المبحث الثالث : الرحلة إلى مسعد

شكلت منطقة الجلفة طيلة العهد العثماني وما يليه من فترات تاريخية، حلقة وصل محورية في مسار الركب الحجازي المغربي؛ إذ لم تكن مجرد ممر جغرافي عابر، بل تحولت إلى فضاء للتفاعل العلمي والروحي بين علماء المغرب العربي والحواضر الداخلية للجزائر.

فقد كانت قرى ومداشر المنطقة مثل مسعد والبرج وعبد المجيد، تمثل محطات استراحة ضرورية لتزويد الحجاج بالمؤن والمياه العذبة، مما مهد السبيل لنشوء بيئة خصبة لاستقرار العلماء وتأسيس الزوايا التعليمية والرباطات الدينية [1]

اقترن اسم السنوسي بهذه المدينة في مرحلة مفصلية من حياته، حيث لم يكن مروره عابراً، بل توج بتأسيس لبنات فكرية وتربوية كان لها الأثر البالغ في الخارطة الصوفية والعلمية للمنطقة قبل انتقاله إلى الأراضي الليبية ثم الحجازية[2]

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع رحلة الشيخ السنوسي في مسعد، وتسليط الضوء على زاويته الأولى التي كانت نواة لمنهجه الإصلاحي.

[1]إسماعيل زيان، نسخ المصاحف بمنطقة الجلفة خلال القرن التاسع عشر ، مجلة المعيار، مجلد 27، عدد 74، 2023، ص 29.
[2] R. Louis, Marabouts et khouan: étude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, 1884, P: 484.

أولا : رحلة محمد بن علي السنوسي في مسعد وزاويته

تعتبر رحلة الشيخ محمد بن علي السنوسي إلى مدينة مسعد من المحطات المؤسسة في تاريخ الطريقة السنوسية؛ إذ إن المنطقة وفرت له المناخ الملائم لبث أفكاره التعليمية والتربوية قبل انطلاقه العالمي. وسنفصل ذلك من خلال الفرعين التاليين:

- استقرار الشيخ السنوسي واندماجه الاجتماعي بمسعد

أشارت المصادر التاريخية والتحقيقات في تراث المنطقة إلى أن الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي، عند وصوله إلى تخوم منطقة الجلفة، وجد في مدينة مسعد بيئة مواتية لنشر دعوته العلمية. وقد دامت مدة إقامته في هذه البلدة قرابة السنتين أو يزيد، وهي فترة كافية لتمتين الروابط مع الساكنة المحلية وبناء قاعدة شعبية لمنهجه [1]

ولم يقتصر حضور الشيخ على الجانب الوعظي المحض، بل تعزز ببعد اجتماعي استراتيجي تمثل في مصاهرته لأهل القرية؛ حيث تزوج من إحدى نساء المنطقة آنذاك، مما ساهم في توفير الحماية والقبول الاجتماعي لدعوته، ومنحه شرعية الوجود الدائم في أوساط أولاد نائل. هذا الاندماج مكنه من استحداث دار له في مسعد، أصبحت فيما بعد مقصداً لطلبة العلم ومريدي الطريقة، وهي الخطوة التي سبقت تحوله الكبير نحو الديار الليبية [2]

[1] أحمد الصدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها وتطورها في القرن التاسع عشر، دار لبنان للطباعة والنشر، 1967، ص 58.
[2] إسماعيل زيان، المرجع السابق، ص 29.

– تأسيس الزاوية السنوسية بمسعد وأبعادها العلمية

يعد تأسيس الزاوية السنوسية في مدينة مسعد حدثاً تاريخياً بامتياز، فهي تمثل أول زاوية للشيخ السنوسي في مساره الإصلاحي قبل تأسيس زواياه الشهيرة في الجبل الأخضر بليبيا. وقد اتسمت هذه المؤسسة بمنهجية تعليمية رصينة ركزت على تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الشرعية، فضلاً عن كونها رباطاً صوفياً يجمع بين العبادة والعمل الجماعي [1]

إن إقامة هذه الزاوية في مسعد وفرت لطلبة الناحية فضاءً علمياً يغنيهم عن الرحيل إلى الحواضر البعيدة، كما ساهمت في تنشيط حركة نسخ المصاحف والكتب المخطوطة التي كانت رائجة في المنطقة. و

رغم أن الشيخ السنوسي غادر مسعد لاحقاً، إلا أن الأثر الذي تركه ظل قائماً ومحركاً للحياة العلمية؛ حيث يذكر في الروايات التاريخية أن العديد من العلماء والطلبة قصدوا مسعد خصيصاً للالتقاء به أو الاستفادة من المناخ العلمي الذي أسسه في زاويته، وهو ما يفسر لاحقاً قدوم شخصيات علمية وازنة للمنطقة، مثل الشيخ محمد بن الطاهر المستغانمي الذي كانت تجمعه قرابة بآل السنوسي [2]

---

[1] إسماعيل زيان، المرجع السابق، ص 327.
[2] أحمد الصدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 58.

ثانيا : الأثر العلمي بعد المرحلة السنوسية

بعد انتقال الشيخ السنوسي نحو المشرق، لم يتوقف الإشعاع العلمي بمسعد، بل تسلمت زوايا أخرى المشعل التعليمي، لاسيما زاوية الشيخ محمد بن عياش بن عزوز السعداوي، التي استمرت على نهج التدريس والتربية. فقد برز في هذا السياق الشيخ محمد بن الطاهر المستغانمي، الذي رابط في زاوية ابن عياش، وكان قد جاء إلى مسعد أصلاً بغية الالتحاق بالشيخ السنوسي، لكنه استقر بها معلماً للقرآن الكريم ورسماً وتجويداً [1]

لقد كانت الزوايا في مسعد، بما فيها الزاوية السنوسية والزوايا التي تلتها كالقادرية والرحمانية، تعمل في تناغم تعليمي؛ حيث نشطت حركة نسخ المصاحف بشكل كبير.

وتؤكد الرسائل المخطوطة المتبادلة بين شيوخ المنطقة، كأحمد بن دلماجة ومحمد بن الطاهر، على وجود دقة علمية متناهية في ضبط الرسم العثماني، مما يدل على أن البذرة التي وضعها السنوسي في مسعد أثمرت نهضة علمية استمرت طيلة القرن التاسع عشر، رغم التحديات والمضايقات التي فرضتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية على مشايخ الزوايا [2]

إن دراسة رحلة الشيخ محمد بن علي السنوسي واستقراره بمدينة مسعد تكشف عن العمق التاريخي لهذه الحاضرة في احتضان المشاريع الإصلاحية

---

[1] إسماعيل زيان، المرجع السابق، ص 30.
[2] علي بن عبد الله نعاس، تنبيه الأحفاد بمناقب الأجداد، مطبعة الرويغي، ط2، 2016، ص 66.

الكبرى، فقد كانت زاويته الأولى بمسعد بمثابة المنطلق لمنهج تربوي وعلمـــي تجاوز حدود الجغرافيا المحلية ليصل إلى أصقاع العالم الإسلامي، وقد ســاهم هذا الوجود في تثبيت دعائم الهوية العلمية للمنطقة، وتنشــيط حركـــة التـــأليف والنسخ والرباط الصوفي [1]

[1] إسماعيل زيان، المرجع السابق، ص 31.

خلاصة الفصل الأول

ومما سبق نستنتج أن السنوات التي قضاها الإمام السنوسي فـــي المغــرب العربـــي (الجزائر وفاس) قد شكلت القاعدة الصلبة التي انطلق منها، ففي الجزائر تشرب القــرآن ومبادئ العلوم وتشرب معاني الفروسية، وفي فاس نضج عقله الفقهي وتهــذبت روحــه الصوفية.

لم يخرج من المغرب العربي مجرد عالم تقليدي، بل خرج يحمل مشروعاً إصلاحياً جنينياً، يجمع بين دقة الفقيه وروحانية الصوفي، ويبحث عن أرض خصبة ليغــرس فيهــا بذور نهضة الأمة، وهو ما سيقوده في رحلته القادمة نحو المشرق والحجاز.

الرحلة إلى المشرق و المشروع الإصلاحي (1824م – 1841م)

المبحث الأول: الطريق إلى الحجاز

المبحث الثاني: الإقامة في الحجاز

شكلت المرحلة التي أعقبت مغادرة الإمام محمد بن علي السنوسي لموطنه في الجزائر، متجهاً شطر المشرق والحجاز، منعطفاً حاسماً ومحطة مفصلية في مسار حياته وتكوين مشروعه الإصلاحي، إذ لم تكن تلك الرحلة الطويلة مجرد انتقال مكاني تمليه فريضة الحج، بل كانت مهمة لواقع الأمة الإسلامية المتردي في القرن التاسع عشر، فمن خلال عبوره الصحراء ومروره بالحواضر العلمية في تونس وطرابلس وصولاً إلى القاهرة، تجمعت لديه مشاهدات دقيقة حول مكامن الداء في الجسد الإسلامي، سواء ما تعلق بالجمود الفكري أو التفكك الاجتماعي أو الخطر الاستعماري الداهم

لتتوج هذه الرحلة بالاستقرار في مكة المكرمة، التي لم تكن مجرد مستقر روحاني فحسب، بل مثلت البوتقة التي انصهرت فيها تجاربه السابقة مع علوم الحديث والسنة التي تلقاها على يد شيخه أحمد بن إدريس، ليخرج من هذه المرحلة برؤية ناضجة ومشروع متكامل تجسد في تأسيس أولى زواياه بجبل أبي قبيس، معلناً بذلك ميلاد الحركة السنوسية كمنهج يجمع بين الصفاء الروحي والعمل الميداني، وهو ما سيتناوله هذا الفصل بالدراسة والتحليل لتتبع مسار نضج هذه الفكرة الإصلاحية من الطريق إلى التأسيس.

المبحث الأول: الطريق إلى الحجاز

مثلت رحلة الإمام محمد بن علي السنوسي من الجزائر نحو المشرق منعطفاً حاسماً في تكوين شخصيته الإصلاحية، فلم تكن مجرد انتقال جغرافي لأداء فريضة الحج فحسب، بل كانت رحلة استكشافية تشخيصية لواقع الأمة الإسلامية المتردي.

لقد غادر الشيخ السنوسي الجزائر في ظروف عصيبة تزامنت مع التحرشات الاستعمارية وبداية الغزو الفرنسي، متخذاً طريق الصحراء مسلكاً له، ليمر عبر تونس وليبيا وصولاً إلى مصر، حيث كانت له في كل محطة مشاهدات دقيقة وتفاعلات علمية واجتماعية ساهمت في نضج رؤيته لمشروع النهضة الإسلامية. [1]

أولا : مشاهداته وأحوال المسلمين في تونس وليبيا

غادر الشيخ محمد بن علي السنوسي الجزائر متجهاً من بوسعادة نحو الجنوب، حيث مر بقرية تماسين (إحدى دوائر ورقلة حالياً)، ومن المرجح أنه عبر وادي سوف ليدخل بعدها إلى الأراضي التونسية عبر منطقة الجريد.

كانت هذه الرحلة الشاقة عبر الصحراء فرصة له للاحتكاك المباشر بسكان هذه المناطق والوقوف على أحوالهم الدينية والاجتماعية، بعيداً عن صخب الحواضر الساحلية التي كانت تعاني من ضغوط سياسية مختلفة. وعند وصوله إلى مدينة تونس، توجه مباشرة إلى منارة العلم فيها، جامع الزيتونة ، حيث التقى بشيوخها وعلمائها

[1] ميلود ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته ، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 20، جوان 2018، ص 137.

في تونس لم يكتفِ السنوسي بالتحصيل العلمي بل كان يمارس دوره كعالم ومصلح، فقد استفاد من شيوخ الزيتونة وأفاد طلابها في نفس الوقت [1] إلا أن نظرته الثاقبة لواقع المسلمين جعلته يدرك أن الأزمة ليست أزمة نصوص، بل هي أزمة نفوس ومناهج. لقد لاحظ الجمود الفكري الذي كان مسيطراً على بعض الأوساط العلمية، والابتعاد عن جوهر الدين الذي يجمع بين العلم والعمل، وهو ما زاد من قناعته بضرورة التغيير. كانت تونس في تلك الفترة تعيش حالة من الترقب والقلق إزاء التوسع الاستعماري، وهو ما لمسه السنوسي في أحاديث العامة والخاصة.

غادر السنوسي تونس متجهاً صوب الأراضي الليبية، قاصداً طرابلس الغرب. وفي طريقه، لم ينقطع عن نشر العلم والوعظ، فكان لا يترك مسجداً معروفاً يمر به إلا وألقى فيه دروساً [2]

وصل إلى مدينة طرابلس ومكث فيها مدة زمنية مارس فيها الوعظ والإرشاد، محاولاً بث الروح في الجسد الإسلامي الخامل. ومن طرابلس انتقل إلى مدينة زليتن ، وهناك حدث لقاء هام مع الشيخ عمران بن بركة ، الذي تأثر بشخصية السنوسي وعلمه وحاول مرافقته في رحلته، إلا أن الشيخ السنوسي طلب منه الانتظار حتى يرسل إليه لاحقاً [3]

لقد كانت ليبيا في تلك المرحلة تعاني من تفكك قبلي وضعف في السلطة المركزية العثمانية في بعض المناطق، مما جعل القبائل في حالة من الفوضى والجهل بأمور الدين الصحيح. لاحظ السنوسي خلال مروره ببرقة وبنغازي أن هناك فراغاً روحياً واستعداداً فطرياً لدى هذه القبائل لتقبل دعوة إصلاحية تعيد إليهم توازنهم. كانت هذه المشاهدات بمثابة البذور الأولى التي ستثمر لاحقاً عند عودته لتأسيس مراكز دعوته في هذه الربوع.

---

[1] يوسي الهواري، الشيخ محمد بن علي السنوسي وكتابه إيقاظ الوسنان ، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد2 ، 30-06-2005، ص 42.

[2] علي محمد الصلابي، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا، دار المعرفة، بيروت، 2005، ص 32.

[3] أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1967، ص 36.

واصل الشيخ السنوسي رحلته عبر الساحل الليبي والصحراء، متأملاً في أحوال العباد والبلاد. كانت ملاحظاته الدقيقة للأوضاع الاجتماعية تكشف له عن عمق المأساة التي يعيشها العالم الإسلامي: فقر، جهل، وتشرذم، وغياب للقيادة الروحية الموحدة التي تستطيع جمع الشتات. في كل محطة كان يتوقف فيها، سواء في المدن الكبرى مثل طرابلس وبنغازي أو في القرى والواحات، كان يرى نفس الأعراض لمرض واحد: ابتعاد عن المنهج الصافي للكتاب والسنة، وغرق في شكليات الطرق الصوفية المنحرفة أو الجمود الفقهي .

كان السنوسي يحمل في داخله همّ المسلمين منذ شبابه ، وقد تجلى ذلك في تفكيره العميق أثناء عزلته وتأملاته. يذكر المؤرخون أنه كان دائم التفكير في حال العالم الإسلامي الذي صار كقطيع من الغنم لا راعي له

هذه الرؤية السوداوية للواقع لم تدفعه لليأس، بل كانت وقوداً لعزيمته، حيث كان يجيب من يسأله عن الحل بقوله: سأجتهد، سأجتهد ، ومن هنا كانت رحلته عبر تونس وليبيا ليست مجرد عبور، بل كانت بحثاً وتنقيباً عن الوسيلة التي تمكنه من خدمة الإسلام ورفع شأن المسلمين

عند وصوله إلى حدود مصر، كان السنوسي قد كون صورة متكاملة عن واقع الجزائر الكبير لقد رأى كيف أن الاستعمار الفرنسي قد بدأ يلتهم الجزائر، وكيف أن تونس وليبيا تعيشان حالة من الضعف الداخلي. أدرك أن الإصلاح لا يمكن أن يكون جزئياً أو محلياً فقط، بل يجب أن ينطلق من مركز روحي قوي يجمع الأمة. وبهذه القناعات والآمال، دخل السنوسي الأراضي المصرية، حاملاً معه إرثه العلمي من فاس وتجاربه من الطريق، ليدخل في مرحلة جديدة من الاحتكاك المباشر مع واقع سياسي وفكري مختلف تماماً تحت حكم محمد علي باشا[1] .

---

[1] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 41.

ثانيا : إقامته في مصر والواقع السياسي تحت حكم محمد علي باشا

وصل الشيخ محمد بن علي السنوسي إلى القاهرة حوالي سنة 1239هـ / 1824م [1] لما كانت مصر في تلك الفترة تعيش تحولات جذرية وعميقة تحت حكم الوالي محمد علي باشا، الذي كان يسعى لبناء دولة حديثة على النمط الأوروبي. كانت القاهرة تموج بالمتناقضات: مشاريع تحديثية عسكرية وإدارية من جهة، ومؤسسة دينية عريقة (الأزهر) تحاول الحفاظ على مكانتها وسط هذه المتغيرات من جهة أخرى.

توجه السنوسي فور وصوله إلى الجامع الأزهر، قبلة طلاب العلم في العالم الإسلامي، ليطلع بأم عينه على الوضعية التي أصبح عليها هذا الصرح العلمي[2]

لقد كانت آماله معقودة على أن يجد في الأزهر الروح الوثابة والمنهج الإصلاحي الذي ينشده، إلا أن الواقع كان مخيباً لآماله إلى حد كبير. لاحظ السنوسي أن الأزهر لم يعد يؤدي رسالته العلمية التي كان يؤديها من قبل ، وأن مناهج التدريس فيه قد أصابها الجمود، حيث طغى عليها النقص الملحوظ في النشاط الروحي والدراسة الصوفية الحقيقية [3]

كان الاصطدام الفكري حتمياً بين منهج السنوسي الإصلاحي وبين العقلية التقليدية السائدة في الأزهر آنذاك، فالسنوسي الذي تشبع بعلوم القرويين وتجارب الرحلة، كان يدعو إلى فتح باب الاجتهاد ونبذ التعصب المذهبي والتقليد الأعمى [4]

بينما كان علماء الأزهر في تلك الحقبة يميلون إلى المحافظة والتقليد، ويرون في دعوات التجديد خطراً يهدد استقرار المؤسسة الدينية. وقد أدى هذا التباين في الرؤى إلى

---

[1] محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 17

[2] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 43.

[3] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 137.

[4] يوسي الهواري، المرجع نفسه، ص 44.

توتر العلاقة بين السنوسي وبعض مشايخ الأزهر، حتى أن بعض علماء الأزهر اتهموه بالابتداع في الدين [1]

أما على الصعيد السياسي فقد كانت مصر تحت حكم محمد علي باشا تمر بمرحلة حساسة. كان محمد علي مشدوهاً إلى التطور العلمي الذي يشهده العالم الغربي [2]، ويسعى لمركزية السلطة والسيطرة على كافة المؤسسات، بما فيها المؤسسة الدينية. هذا المناخ السياسي لم يكن مريحاً للشيخ السنوسي، الذي كان يرى أن الإصلاح يجب أن ينبع من الكتاب والسنة وليس من استنساخ التجارب الغربية التي تهمش الجانب الروحي للأمة.

لقد مكنته تجربته القصيرة في مصر من الاطلاع على أحوال الدولة العثمانية عن كثب، وفهم طبيعة العلاقة المتوترة بين الحكام والعلماء. ورغم الاحتفاء الذي لقيه من بعض العلماء المخلصين، إلا أن الجو العام لم يكن ملائماً لاستقراره أو لنشر دعوته بحرية. تشير المصادر إلى أن الشكوك كانت تحوم حوله[3]، وربما خشي محمد علي باشا من تأثير شخصية كاريزمية ومصلحة مثل السنوسي، الذي يحمل فكراً يجمع بين الصوفية المنضبطة والسلفية الواعية، وهو ما قد يشكل تياراً مستقلاً بعيداً عن سيطرة الدولة.

رغم قصر المدة التي قضاها في مصر في رحلته الأولى، إلا أنها كانت حاسمة في بلورة موقفه من المؤسسات الدينية التقليدية، لقد أيقن أن الإصلاح لا يمكن أن يأتي من مؤسسات تكلست مناهجها أو خضعت للسلطة السياسية بالكامل.

دفعه هذا الإدراك للتفكير في بديل يجمع بين العلم والعمل والعبادة ، وهو ما سيحاول تحقيقه لاحقاً من خلال تأسيس الزوايا.

---

[1] ميلود ميسوم، المرجع نفسه، ص 137.
[2] ميلود ميسوم، المرجع نفسه، ص 137.
[3] سعود دحدي، البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية ، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2010/2009، ص 14.

يصف يوسي الهواري هذه المرحلة بأنها مكنت السنوسي من التعرف عن قرب على أحوال العالم الإسلامي والاحتكاك بالعلماء والفقهاء ، لكنها في الوقت نفسه أكدت له عمق الأزمة. فالأزهر، رغم عراقته، كان غارقاً في الجدال اللفظي والخلافات المذهبية، بعيداً عن هموم الأمة الحقيقية وتحديات الاستعمار ومحمد علي باشا كان مشغولاً ببناء مجده الشخصي ودولته الحديثة بمعزل عن الروح الإسلامية الجامعة.[1]

لم تقتصر إقامة السنوسي في مصر على التفاعل السلبي أو النقد، بل كانت فرصة له لعرض أفكاره واختبارها أمام نخبة من العلماء. ورغم المعارضة التي واجهها، إلا أنه نال شهرة عظيمة وأقبل عليه الناس لما رأوا من صلاحه وورعه وسعة اطلاعه [2]

لكن طبيعة الدعوة السنوسية التي بدأت تتبلور ملامحها، والقائمة على تحكيم الكتاب والسنة ورفض البدع، كانت تصطدم بواقع الطرق الصوفية السائدة في مصر آنذاك، والتي كان يغلب على بعضها طابع الابتداع في الدين والمبالغة في الطقوس بعيداً عن الجوهر الشرعي.

وفي خضم هذه التفاعلات قرر الشيخ السنوسي مغادرة مصر والتوجه إلى الحجاز. لم يكن خروجه هروباً، بل كان بحثاً عن بيئة أرحب وأكثر صفاءً لاستكمال مشروعه. كانت مكة المكرمة تمثل له ملتقى لجميع علماء المسلمين [3]، والمكان الذي يمكن أن يجد فيه ضالته المنشودة بعيداً عن ضغوط السلطة السياسية لمحمد علي باشا في القاهرة، وعن جمود المؤسسة الأزهرية.

[1] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 43.
[2] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 136.
[3] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 59.

إن الفترة التي قضاها في مصر، رغم قصرها (قبل سفره للحجاز عام 1825م)، كانت كافية لكي يدرك السنوسي أن العالم الإسلامي يفتقر جداً إلى مرشد حقيقي ، وأن العلماء الموجودين انصرفوا إلى الخلافات القائمة بينهم [1]

هذا التشخيص الدقيق هو الذي سيوجه خطواته اللاحقة في مكة، حيث سيبحث عن منهج يجمع الشتات ويوحد الصفوف، وهو ما سيجده لاحقاً عند شيخه أحمد بن إدريس الفاسي.

تجدر الإشارة إلى أن السنوسي عاد ومر بمصر لاحقاً في طريق عودته (حوالي عام 1840م)، وحظي حينها باستقبال كبير من طرف علماء الأزهر[2]، حيث وصفه أحدهم بأنه إمام الأمة المحمدية ونبراس الشريعة المطهرة . هذا التباين في الاستقبال بين الزيارة الأولى والزيارات اللاحقة يعكس نجاح السنوسي في إثبات جدارة منهجه العلمي وقوة حجته، ورسوخ قدمه كعالم مجدد فرض احترامه حتى على من اختلفوا معه في البداية.

كان الواقع السياسي تحت حكم محمد علي باشا هو الهاجس الأكبر، كانت سياسات الباشا تجاه الوهابيين في الجزيرة العربية، وتضييقه على الحركات الدينية المستقلة، تجعل من بقاء السنوسي في مصر أمراً محفوفاً بالمخاطر. فالسلطة كانت ترقب كل حركة تجديدية بعين الريبة، خشية أن تتحول إلى قوة سياسية منافسة، وهو ما حدث بالفعل لاحقاً حين خافت السلطات الحكومية من اتصال السنوسي بالوهابيين [3]

يمكن القول إن الطريق إلى الحجاز لم يكن مجرد مسافة قطعت، بل كان مرحلة نضج فكري وسياسي للإمام السنوسي. ففي تونس وليبيا، لمس حاجة العامة إلى التوجيه والتربية الروحية المنظمة، ورأى الفراغ الذي خلفه ضعف الدولة العثمانية. وفي مصر،

[1]محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 10.
[2]محمد بن عثمان الحشائشي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا، تحقيق علي مصطفى المصراتي، دار لبنان، بيروت، 1965، ص 17.
[3]ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 141.

اصطدم بتحديات التحديث العلماني (مشروع محمد علي) والجمود المؤسسي (الأزهـر)، وأدرك أن الإصلاح لا يمكن أن يتم عبر الأدوات التقليدية وحدها.

لقد خرج السنوسي من مصر وهو يحمل قناعة راسخة بأن الأمة بحاجة إلى حركة شمولية تجمع بين العلم والعبادة والعمل [1]، لم يجد في القاهرة المناخ المناسب لغرس هذه البذرة، فاتجهت أنظاره وقلبه نحو الحجاز، حيث مهبط الوحي وملتقى العلماء، آملاً أن يجد هناك الأرض الخصبة والرجال الصادقين الذين يمكنهم حمل هذا العبء معه.

وهكذا شكلت هذه المحطات (تونس، ليبيا، مصر) المختبر الواقعي الذي فحص فيه السنوسي أمراض الأمة، قبل أن يبدأ في صياغة الدواء في مكة المكرمة، إن فهم هذه المرحلة يعد مفتاحاً أساسياً لاستيعاب طبيعة الحركة السنوسية لاحقاً، فهي لم تكن وليدة لحظة حماس في مكة، بل كانت نتاج تراكم مشاهدات مؤلمة وتفاعلات عميقة امتدت من فاس إلى القاهرة، واختمرت تحت وطأة التحديات السياسية والاجتماعية التي عاينها الإمام بنفسه.

لقد أثبتت الأيام صحة تشخيصه، فما لبثت الزوايا التي أسسها لاحقاً أن أصبحت مراكز إصلاح إنساني متكامل ، تسد الثغرات التي رآها في رحلته: فتعلم الجاهل، وتطعم الجائع، وتجاهد المحتل، وتجمع الكلمة على كتاب الله وسنة رسوله، بعيداً عن غلو المتصوفة وتقصير المقلدة، ومستقلة عن هيمنة السلاطين والحكام. [2]

---

[1] محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، بيروت، 1948، ص 21.
[2] محمد فؤاد شكري، المرجع نفسه، ص 134.

المبحث الثاني: الإقامة في الحجاز

تمثل مرحلة الإقامة في الحجاز المنعطف الأهم في حياة الإمـــام محمــد بــن علــي السنوسي؛ ففيها نضجت رؤيته الإصلاحية، وتبلورت معالم حركته الدعوية. فبعد خروجه من مصر خائب الأمل في المناهج التعليمية السائدة بالأزهر آنذاك، اتجــه صــوب مكــة المكرمة عام 1240هــ الموافق لــ 1825م، ليبدأ مرحلة جديدة مــن التكــوين العلمــي والروحي [1]

أولا : مكة المكرمة كملتقى لعلماء العالم الإسلامي

كانت مكة المكرمة في تلك الفترة تخضع لسلطة محمد علي باشا، وكانت تمثل ســوقاً عكاظية للعلوم والمعارف، حيث يفد إليها العلماء من شتى بقاع الأرض [2]، أتاحــت هــذه البيئة للشيخ السنوسي الاحتكاك بمختلف المدارس الفكريــة؛ فتعــرف علــى الصــوفية والمالكية، واطلع على الفكر السلفي الوهابي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية. ومــن أبرز العلماء الذين تتلمذ عليهم في هذه المرحلة المفتي أبو سليمان عبد الحفيظ العجمــي، والشيخ أبو حفص عمر بن عبد الرسول العطار [3]

لقد كان السنوسي يرى في وفود الحجيج مادة خصبة لدراسة أدواء الأمــة ، حيــث مكنته هذه اللقاءات من تكوين رؤية شاملة حول واقع المجتمعات الإسلامية واحتياجاتهــا الإصلاحية[4]

---

[1]ميلود ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، ص 137.
[2]أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، ص 68.
[3]محمد الطيب بن إدريس الأشهب، السنوسي الكبير، ص 14.
[4]محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 11.

ثانيا : تأثره بشيخه أحمد بن إدريس الفاسي وتعمقه في دراسة الحديث والسنة

في خضم هذا التنوع العلمي بمكة، وجد السنوسي ضالته المنشودة في شخصية العالم المغربي أحمد بن إدريس الفاسي، الملقب بأبي العباس العرائشي، والذي كان يجمع بين الاتجاهين الصوفي والسلفي[1]

ولازم السنوسي شيخه ملازمة الظل، وتعمق على يديه في دراسة الحديث النبوي الشريف وعلوم السنة، مما أحدث تحولاً جذرياً في منهجه الفقهي؛ حيث بدأ يميل إلى طرح التقليد المذهبي الضيق والعودة المباشرة إلى النص [2]

وقد بلغ تأثره بشيخه حداً كبيراً، لاسيما في علم السلوك وتصفية النفس. وعندما اشتدت مضايقات علماء مكة الموالين للدولة العثمانية لابن إدريس، اختار الهجرة إلى منطقة عسير واليمن، فصحبه السنوسي وبقي معه مريداً وتلميذاً وفياً حتى وفاة ابن إدريس عام 1250هـ/ 1835م[3]

صقلت هذه الرحلة شخصية السنوسي القيادية، وأورثته أسانيد وطرقاً صوفية تهذبت بضوابط السنة، مما مهد الطريق لظهور الطريقة السنوسية كطريقة مستقلة تعتمد المنهج الشمولي [4]

ثالثا : تأسيس أول زاوية (زاوية أبي قبيس)

بعد وفاة ابن إدريس عاد الإمام السنوسي إلى مكة المكرمة عام 1252هـ/ 1837م، محملاً بطموحات إصلاحية كبيرة، فقام بتأسيس أول زاوية له على جبل أبي قبيس المطل

---

[1] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 138.
[2] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 68.
[3] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 14.
[4] علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 42.

على المسجد الحرام [1]، لم تكن هذه الزاوية مجرد مكان للعبادة، بل كانت نواة الحركة السنوسية ومركزاً تعليمياً واجتماعياً يهدف إلى بناء المسلم الصالح المنتج.

تميزت زاوية أبي قبيس بدلالاتها الروحية والجغرافية؛ فهي في مكة مهبط الوحي، وقد أصبحت منطلقاً لدعوته التي بدأت تستقطب أعداداً غفيرة من الحجاج، لاسيما الوافدين من طرابلس الغرب والجزائر [2]

من هذه الزاوية بدأ السنوسي في تطبيق منهجه الذي يربط بين العلم والعمل والعبادة، حيث كان يشرف بنفسه على تعليم المريدين وتوجيههم لبناء المساجد والعمل في الحرف والزراعة، محارباً بذلك روح التواكل التي شابت بعض الطرق الصوفية الأخرى[3]، وكان يرى في هذا التنظيم وسيلة لتوحيد كلمة المسلمين تحت غاية واحدة [4]

أثناء إقامته بالحجاز لم يكن السنوسي غائباً عن معاناة وطنه الجزائر التي كانت ترزح تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، وقد تجلى وعيه السياسي والجهادي في موقفه من محاولة المحتل الفرنسي اختراق الجبهة الدينية. ففي تلك المرحلة، حاول المستشرق الفرنسي ليون روش (Leon Roches) الحصول على فتوى من علماء الحرمين تبيح للجزائريين الاستسلام لفرنسا بدعوى حقن الدماء [5]

تصدى الإمام السنوسي لهذه المكيدة بوعي تام، حيث أدرك أن الدين الإسلامي يحتم على المسلمين الدفاع عن ديارهم بقدر الاستطاعة، ويحرم الاستسلام للعدو الغاصب المنتهك للحرمات [6]

---

[1] ميلود ميسوم، المرجع نفسه ، ص 134.
[2] أحمد صدقي الدجاني، المرجع نفسه ، ص 89.
[3] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 40.
[4] محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 21.
[5] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 14.
[6] علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 49.

ويذكر أن السنوسي التقى بمحيي الدين الجزائري وابنه عبد القادر في مكة عام 1827م، وأوصى بالذود عن حياض الإسلام، مما يعكس ارتباطه العضوي بالقضايا الوطنية [1]

إن موقفه الصارم من محاولات التفتيت الاستعماري زاد من ريبة السلطات العثمانية تجاهه، خاصة مع ازدياد نفوذه بين القبائل المغاربية الوافدة للحج [2]

إن سنوات الإقامة في الحجاز التي قاربت العشرين عاماً، لم تكن مجرد رحلة علمية، بل كانت مرحلة التأسيس الكبرى للحركة السنوسية. ففيها اكتملت الشخصية الدعوية للإمام السنوسي، ووضع الأصول الفكرية التي قامت على تحكيم الكتاب والسنة وفتح باب الاجتهاد [3]

ومع تزايد عداوة بعض شيوخ مكة وتوجس السلطات العثمانية من تحركاته السياسية وعلاقاته بأبناء شيخه في اليمن، قرر الإمام السنوسي مغادرة الحجاز والتوجه نحو بلاد المغرب عام 1255هـ/ 1840م [4]

خرج السنوسي من مكة وهو يحمل مشروعاً متكاملاً يتمثل في نظام الزوايا الذي أثبت نجاحه في جبل أبي قبيس، ليعيد زرعه في برقة بليبيا، مما حول الحركة من مجرد دعوة دينية إلى قوة اجتماعية وسياسية عظمى [5] وبذلك يكون الحجاز قد منح السنوسية عالميتها، وصاغ جوهرها الإصلاحي الذي سيمتد لاحقاً إلى أعماق القارة الإفريقية [6]

---

[1] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 139.
[2] محمد فؤاد شكري، المرجع نفسه ، ص 21.
[3] يوسي الهواري، المرجع نفسه ، ص 52.
[4] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 138.
[5] محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 21
[6] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 74

خلاصة الفصل الثاني

نخلص من خلال تتبعنا لمسار رحلة الإمام محمد بن علي السنوسي وإقامته الطويلة في المشرق، أن هذه الحقبة الزمنية (1824–1840م) كانت بمثابة المختبر الحقيقي الذي صيغت فيه معالم الحركة السنوسية ومناهجها، فقد أثبتت الوقائع أن الطريق إلى الحجاز كان بمثابة رحلة استكشافية كشفت للإمام عمق الأزمة التي تعيشها الحواضر الإسلامية من تونس إلى مصر، حيث عاين بنفسه الجمود الذي أصاب المؤسسات التعليمية التقليدية، والوهن الذي دب في أوصال المجتمع نتيجة البعد عن المنهج الصافي للكتاب والسنة، وهي المشاهدات التي ولدت لديه قناعة راسخة بحتمية التغيير وضرورة البحث عن بديل إصلاحي شامل لا يكتفي بالنصوص بل يتعداها لإصلاح النفوس.

وقد تجلى نضج هذا المشروع في مكة المكرمة، التي مثلت للإمام مدرسة عليا للتكوين والقيادة، فبتأثير مباشر من شيخه أحمد بن إدريس الفاسي، استطاع السنوسي أن يبلور منهجاً وسطياً يزاوج بين التربية الصوفية المنضبطة بضوابط الشرع، وبين التمسك بنصوص الوحيين ونبذ التعصب المذهبي، وقد تحول هذا التنظير الفكري إلى واقع عملي ملموس من خلال تأسيس زاوية أبي قبيس، التي لم تكن مجرد مسجد للصلاة، بل كانت النموذج المصغر والنواة الأولى لنظام الزوايا السنوسية الذي يجمع بين العبادة والعلم والعمل والإنتاج، ويهدف إلى بناء الفرد المسلم القادر على مواجهة تحديات عصره.

كما أظهرت هذه المرحلة الوعي السياسي المتقدم للإمام السنوسي، والذي برز في تصديه لمحاولات الاختراق الاستعماري عبر فتوى ليون روش، وفي ابتعاده عن الصدام مع السلطات المحلية والحرص على وحدة الصف، إلا أن التضييق الذي مورس عليه من قبل المناوئين والسلطة العثمانية، وعمق ارتباطه بقضايا الشمال الإفريقي، جعله يقرر العودة حاملاً معه بذور السنوسية التي أينعت في الحجاز، ليقوم بغرسها في تربة برقة بليبيا، لتتحول الحركة من مجرد حلقة علمية في الحرم المكي إلى قوة اجتماعية وسياسية

ودعوية كبرى، تجاوز تأثيرها الحدود الجغرافية لتمتد في عمق القارة الإفريقيـــة والعـــالم الإسلامي.

الاستقرار في ليبيا

المبحث الأول: العودة من الحجاز

المبحث الثاني: تأسيس الزاوية البيضاء (أم الزوايا)

المبحث الثالث : جهوده في الإصلاح بين القبائل

المبحث الأول: العودة من الحجاز

أولا: أسباب مغادرة الحجاز

شهدت المرحلة الحجازية من حياة الإمام محمد بن علي السنوسي نشاطا علميا ودعويا مكثفا، حيث أسس زاويته الأولى على جبل أبي قبيس بمكة المكرمة سنة 1252هـ (1837م)، والتف حوله جمع غفير من طلاب العلم والمريدين. إلا أن هذا النجاح السريع والالتفاف الجماهيري حول شخصيته وفكره الإصلاحي، بدأ يثير حفيظة وتوجس السلطات العثمانية وعلماء مكة التقليديين.

لقد تميز السنوسي بدعوته الصريحة إلى الاجتهاد والرجوع المباشر إلى الكتاب والسنة، ونبذ التعصب المذهبي والتقليد الأعمى، وهو ما اعتبره بعض العلماء التقليديين خروجا عن المألوف، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها المؤيدين من الدولة العثمانية، الذين تضايقوا لمخالفته إياهم [1]

إلى جانب هذا التباين الفكري كانت هناك أسباب سياسية عميقة عجلت باتخاذ الإمام السنوسي قرار مغادرة الأراضي المقدسة، فقد ظلت السلطات العثمانية تراقب نشاطه بحذر شديد، خاصة بعد أن استمر في تواصله مع أبناء أستاذه أحمد بن إدريس في منطقة صبيا ، وهي منطقة كانت تخضع لنفوذ الحركة الوهابية.

وقد كان العداء مستحكما في تلك الفترة بين الحكومة العثمانية وحكام مكة من جهة، وبين أتباع الدعوة الوهابية من جهة أخرى [2] هذا التواصل جعل السلطات تشكك في نوايا السنوسي وتتخوف من تنامي نفوذه، مما شكل ضغطا سياسيا ونفسيا كبيرا عليه.

أمام هذه التحديات المتزايدة أدرك الإمام السنوسي بوعيه السياسي وحنكته الدعوية أن البقاء في مكة قد يؤدي إلى صدام مباشر لا يخدم أهداف حركته الإصلاحية الناشئة.

[1] أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1967، ص 68.
[2] محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، بيروت، 1948، ص 21.

وكان يرى أن رسالته تتطلب بيئة أكثر مرونة واستعدادا لتقبل الفكر التجديدي، بعيدا عن تعقيدات الصراعات السياسية والمذهبية التي كانت تعج بها الحجاز في تلك الحقبة.

– الاستجابة لنداء المغرب العربي والتوجه نحو إفريقيا

لم تكن المضايقات السياسية والمذهبية في الحجاز هي الدافع الوحيد لخروج الإمام السنوسي؛ بل تضافرت عوامل أخرى لعل أهمها تطلعه إلى العودة نحو وطنه الأم في الشمال الإفريقي. لقد استغل السنوسي فترة إقامته الطويلة في مكة المكرمة للتواصل مع وفود الحجاج القادمين من مختلف الأقطار الإسلامية، وخاصة حجاج بلاد المغرب العربي وليبيا. ومن خلال هذا الاحتكاك، تعرف عن قرب على أحوال الأمة، ووصلته دعوات ملحة من مريديه وأتباعه في الجزائر وطرابلس الغرب للعودة وإرشادهم، خاصة في ظل الزحف الاستعماري الفرنسي الذي بدأ يبتلع الجزائر [1]

كان الإمام السنوسي مشغولا بقضية بلاده الجزائر التي سقطت فريسة في أيدي الاحتلال الفرنسي، وكان يشعر بمسؤولية دينية وتاريخية تجاه نصرة المقاومة هناك. وبناء على ذلك قرر مغادرة الحجاز سنة 1255هـ (1840م)، متوجها نحو مصر كخطوة أولى في طريق عودته إلى المغرب العربي. وفي مصر، ألقى دروسا في الجامع الأزهر، والتقى بعلمائه الذين قدروه في البداية، قبل أن يثور عليه بعضهم بسبب نزعته الاجتهادية ورفضه للتقليد [2]

واصل الإمام مسيره نحو الغرب محاولا الدخول إلى الجزائر عبر تونس، إلا أن التواجد الاستعماري الفرنسي حال بينه وبين تحقيق أمنيته، مما اضطره للعودة أدراجه والاستقرار المؤقت في طرابلس الغرب، ثم التوجه نحو منطقة برقة. هذا التغيير في المسار لم يكن وليد الصدفة المجردة، بل كان توجيها ربانيا واستراتيجيا، حيث وجد

---

[1] سعود دحدي، البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية (1842-1931)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2010، ص 14.
[2] محمد الطيب الأشهب، السنوسي الكبير، مطبعة محمد عاطف، القاهرة، ص 17.

السنوسي في الجغرافيا اللىبية ملاذا آمنا ومنطلقا جديدا لتأسيس دعوته بعيدا عن مراكـز النفوذ الاستعماري ومضايقات السلطة المركزية.

ثانيا : أسباب الاستقرار في برقة (ليبيا)

بعد تعذر الدخول إلى الجزائر، اختار الإمام محمد بن علي السنوسي النـزول فـي إقليم برقة بليبيا ليكون المركز الرئيسي لدعوته وحركته. وقد بني هـذا الاختيـار علـى دراسة عميقة وقراءة استراتيجية دقيقة للواقع الجغرافي والسياسي والاجتماعي للمنطقـة. فمن الناحية السياسية، كانت برقة والمناطق الداخلية من ليبيا لا تخضع للسلطان العثمـاني إلا خضوعا اسميا في المناطق الساحلية، أما الدواخل فكانت بعيدة عن النفـوذ العثمـاني المباشر، مما وفر للحركة السنوسية مساحة من الحرية بعيدا عن رقابة وتـدخل السـلطة المركزية [1]

ومن الناحية الاجتماعية كانت برقة مجالا صالحا لنشر الدعوة الدينية؛ حيث كانـت القبائل العربية والبدوية تعيش حالة من التأخر الديني وانتشار الجهـل، وتتسـم حياتهـا بالنزاعات القبلية. وقد وجد الإمام السنوسي في هذه القبائل مادة خصـبة لتقبـل دعوتـه القائمة على تنقية العقيدة والرجوع إلى الكتاب والسنة، فاستطاعت السنوسية فـي وقـت وجيز أن تهذب نفوسهم، وتزيل جهلهم، وتحبب إليهم العمل والوحدة [2]

إضافة إلى ذلك تميزت منطقة الجبل الأخضـر فـي برقـة بخصـوبة أراضـيها وصلاحيتها للزراعة، فضلا عن موقعها الاستراتيجي المتوسـط علـى طـرق القوافـل التجارية الممتدة بين الساحل وعمق الصحراء الإفريقية. هذا الموقع وفر للحركة السنوسية الاستقلالية الاقتصادية من خلال الزراعة والتجارة، وسهل لها نشر الدعوة فـي الأقـاليم

[1] محمود الشنيطي، قضية ليبيا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951، ص 42.
[2] علي محمد الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 2005، ص 18.

الإفريقية المجاورة. لقد أدرك السنوسي أن بناء حركة قوية يتطلب استقرارا جغرافيا بعيدا عن الصدامات، وبيئة تقبل التغيير الطوعي.

المبحث الثاني : تأسيس الزاوية البيضاء (أم الزوايا)

تتويجا لاستقراره في إقليم برقة، أقدم الإمام محمد بن علي السنوسي على تأسيس أول زاوية له في المنطقة، والتي عرفت تاريخيا بـ الزاوية البيضاء . تم بناء هذه الزاوية في أعلى الجبل الأخضر، بالقرب من قبر الصحابي الجليل رافع بن ثابت الأنصاري، وذلك سنة 1258هـ (1842م). وقد سميت بالبيضاء نظرا لبياض جدرانها المتميزة عن محيطها، وأطلق عليها السنوسيون لقب الزاوية الأم ، لكونها المركز الأول ومنطلق الدعوة السنوسية الممنهجة في الشمال الإفريقي [1]

لم يكن اختيار موقع الزاوية البيضاء عشوائيا، بل تم بناؤها في مكان مرتفع وبعيد عن الأخطار الخارجية التي كان الإمام يتوقعها. وقد اتبع السنوسي أسلوبا فريدا في بناء زواياه، حيث كانت تبنى بالاتفاق والتراضي مع القبيلة التي تملك الأرض، لضمان حمايتها واستمراريتها. لم تكن الزاوية البيضاء مجرد مكان للعبادة والانقطاع الصوفي، بل صممت لتكون مركزا دينيا، وتعليميا، واجتماعيا متكاملا، ومحكمة لفض النزاعات بين القبائل، وقلعة عسكرية لصد المعتدين [2]

كان تأسيس هذه الزاوية إيذانا ببدء مرحلة جديدة من العمل المؤسسي الدقيق. فقد شكلت الزاوية البيضاء النواة الأولى للمجتمع السنوسي المنضبط، ومنها تخرج أوائل الدعاة والعلماء الذين حملوا رسالة الحركة إلى باقي أرجاء ليبيا والصحراء الكبرى. وقد جسدت هذه الزاوية التطبيق العملي لفكر الإمام السنوسي الذي يجمع بين العلم والعبادة والعمل، بعيدا عن التواكل الذي اتسمت به بعض الطرق الصوفية في ذلك العصر.

---

[1] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 17

[2] ني.آ.ف. دي كاندول، المرجع السابق، ص 4.

أولا : آثار الاستقرار وامتداد شبكة الزوايا

أثمر الاستقرار في الزاوية البيضاء ببرقة نجاحا منقطع النظير للحركة السنوسية؛ فقد توافدت القبائل على الإمام السنوسي تعلن ولاءها وتقبلها لمنهجه الإصلاحي السمح. وعمل الإمام على إرساء قواعد تنظيمية دقيقة تعتمد على تعيين شيخ مقدم لكل زاوية يعاونه وكيل مكلف بالشؤون الاقتصادية، مما خلق هيكلا إداريا أشبه ما يكون بدولة داخل إقليم، يعتمد على ذاته زراعيا وتجاريا، ويفصل في خصومات الأهالي بحكم الشريعة الإسلامية [1]

بعد أن اطمأن الإمام السنوسي على رسوخ دعوته في برقة، وتأسيس شبكة واسعة من الزوايا المتآزرة، انطلق لتوسيع دائرة تأثيره. ورغم أنه عاد إلى الحجاز لاحقا وأقام بها ثماني سنوات لتعزيز الروابط الدعوية، إلا أن برقة ظلت المركز النابض للحركة. وفي مرحلة لاحقة، وتحديدا سنة 1856م، نقل الإمام مركزه إلى واحة الجغبوب في عمق الصحراء، ليكون بمنأى تام عن التدخلات الخارجية، وليتخذها قاعدة للانطلاق نحو إفريقيا الوسطى والسودان [2]

خلاصة القول إن اختيار برقة وتأسيس الزاوية البيضاء مثل نقطة التحول الكبرى في تاريخ الحركة السنوسية. لقد وفر هذا الاستقرار الجغرافي للحركة فرصة بناء مجتمع إسلامي متماسك، يجمع بين صفاء العقيدة والعمل الدنيوي المثمر، وهو ما مكن السنوسية من لعب دور تاريخي وجهادي بارز في مقاومة الاستعمار الأوروبي لاحقا، والحفاظ على الهوية الإسلامية في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى.

---

[1] مصطفى عبد الله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي، الجمعية التاريخية لخريجي كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1968، ص 41.
[2] عبد الرحمن تشايجي، المرجع السابق، ص 29.

ثانيا : العودة من الحجاز وتأسيس الزاوية البيضاء

لقد كانت رحلة الإمام محمد بن علي السنوسي إلى المشـرق، ولا سـيما الحجـاز، محطة فاصلة في مسيرته العلمية والدعوية. فبعد أن اسـتقر فـي مكـة المكرمـة سـنة 1240هـ (1825م)، أتيحت له فرصة ثمينة للاحتكاك المباشر بعلماء الأمة الوافدين مـن مختلف الأصقاع، وتعرّف عن كثب على الحركات الإصلاحية السائدة آنذاك. ومن أبـرز الشخصيات التي أثرت في فكره في تلك المرحلة، الإمام أحمد بن إدريس، الذي أخذ عنـه السنوسي علوم الحديث والتصوف السني، وتوثقت بينهما رابطة قوية استمرت حتى وفـاة ابن إدريس سنة 1250هـ (1835م) [1] بعد وفاة شيخه، عاد السنوسي إلى مكة المكرمـة وبدأ في إرساء دعائم طريقته، حيث أسس أول زاوية له على جبـل أبـي قبـيس سـنة 1252هـ (1837م)، لتبدأ معالم الدعوة السنوسية في التبلور والانطلاق [2]

ورغم النجاح والالتفاف الذي حققته دعوته في الحجـاز، إلا أن السنوسـي واجـه تحديات متزايدة. فقد أثارت دعوته إلى نبذ التعصب المذهبي والعـودة الصـريحة إلـى الاجتهاد استياء بعض العلماء التقليديين في مكة، كما أن السلطات العثمانية بدأت تتـوجس خيفة من تعاظم نفوذه، خاصة مع وجود أتباع له على تواصل مع مناطق خاضعة لتـأثير حركات إصلاحية أخرى كالحركة الوهابية.

هذه التوترات المتصاعدة إلى جانب الدعوات المتكررة التي تلقاها من مريديه فـي بلاد المغرب العربي للعودة وقيادة جهود الإصلاح والمقاومة ضد التمـدد الاسـتعماري الفرنسي في الجزائر، جعلت السنوسي يفكر جدياً في العودة إلى وطنه [3]

وهكذا قرر الإمام السنوسي مغادرة الحجاز سنة 1255هـ (1840م)، متوجهاً نحو الشمال الإفريقي. وقد مرت رحلة عودته بمصر، حيث حظي باستقبال حافل في الأزهـر

---

[1] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 14.
[2] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 68.
[3] محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، بيروت، 1948، ص 21.

الشريف، قبل أن تدفعه الظروف السياسية والأمنية لاستكمال مسيره. كانت نيته الأولى العودة إلى الجزائر، مسقط رأسه، لمساندة المقاومة هناك، إلا أن التواجد العسكري الفرنسي المكثف على الحدود وفي الداخل الجزائري حال دون تحقيق ذلك [1]

أمام استحالة الدخول إلى الجزائر وجد الإمام السنوسي نفسه مضطراً للبحث عن مستقر جديد يكون منطلقاً لدعوته ومشروعه الإصلاحي الكبير. وبعد فترة قضاها في طرابلس الغرب، وقع اختياره على إقليم برقة في ليبيا. لم يكن هذا الاختيار عشوائياً، بل جاء بناءً على قراءة دقيقة للواقع الجغرافي والسياسي والاجتماعي للمنطقة. فمن الناحية السياسية، كانت برقة تتمتع باستقلالية نسبية؛ إذ لم تكن تخضع للسلطة العثمانية المباشرة إلا في المدن الساحلية، بينما كانت المناطق الداخلية والجبلية خاضعة لنفوذ القبائل، مما يوفر للحركة السنوسية المساحة والحرية اللازمتين للنمو بعيداً عن رقابة الإدارة العثمانية [2]

أما من الناحية الاجتماعية فقد كانت القبائل البدوية في برقة تعاني من تفشي الجهل والنزاعات الداخلية، وتأخر في فهم وتطبيق أسس الدين الإسلامي الصحيح. ورأى السنوسي في هذه البيئة أرضاً خصبة لنشر دعوته التي تركز على تصحيح العقيدة، وتزكية النفوس، ونبذ الفرقة، وتحبيب العمل والإنتاج إلى البدو الذين كانوا يعتمدون بشكل كبير على الرعي المترحل [3] كما أن الموقع الجغرافي لبرقة، وتحديداً الجبل الأخضر، كان يتميز بخصوبة الأراضي وصلاحيتها للزراعة، بالإضافة إلى كونه نقطة ارتكاز هامة على طرق القوافل التجارية التي تربط سواحل البحر المتوسط بعمق الصحراء الكبرى [4]

أدرك السنوسي أن برقة توفر البيئة المثالية لتأسيس حركته على أسس صلبة، ومن هنا بدأ في تطبيق استراتيجيته القائمة على نشر التعليم الديني، والإصلاح الاجتماعي،

---

[1] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 74.
[2] محمود الشنيطي، قضية ليبيا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951، ص 42.
[3] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 18.
[4] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 132.

وتحفيز النشاط الاقتصادي المعتمد على الزراعة والتجارة، تمهيداً لبناء مجتمع إسلامي متماسك قادر على مواجهة التحديات الداخلية.

تتويجاً لقراره بالاستقرار في برقة أقدم الإمام محمد بن علي السنوسي على خطوة تأسيسية مفصلية في تاريخ حركته، وهي بناء الزاوية البيضاء في منطقة الجبل الأخضر، وذلك في عام 1258هـ (1842م). وقد اختير موقع الزاوية بعناية فائقة في منطقة مرتفعة وحصينة، غير بعيد عن قبر الصحابي الجليل رافع بن ثابت الأنصاري [1] وأُطلق عليها اسم الزاوية البيضاء تيمناً ولون طلائها الأبيض الذي كان يُميزها في ذلك المحيط الجغرافي.

لم تكن الزاوية البيضاء، أو أم الزوايا كما عُرفت لاحقاً، مجرد مكان منعزل للعبادة والاعتكاف كما كان شائعاً في بعض الطرق الصوفية التقليدية. بل صُممت لتكون مركزاً إشعاعياً متكاملاً، ومؤسسة دينية واجتماعية وتعليمية تدير شؤون المجتمع المحيط بها. فقد كانت تضم مسجداً لإقامة الشعائر، ومدرسة لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشرعية، ومرافق لإيواء الطلبة وعابري السبيل، بالإضافة إلى مساحات مخصصة للزراعة وتخزين المؤن [2]

كان تأسيس هذه الزاوية يُمثل تجسيداً عملياً لمنهج السنوسي الذي يجمع بين التزكية الروحية والعمل الدنيوي المثمر. وقد أسس السنوسي مبدأ هاماً في بناء زواياه، حيث كان يتم إنشاؤها بالاتفاق والتراضي الكامل مع القبائل المحلية التي تقدم الأرض والمساعدة في البناء، مما يضمن ولاءها وحمايتها للزاوية. وبذلك تحولت الزاوية البيضاء إلى قلب نابض للحياة في الجبل الأخضر، ومركزاً لفض النزاعات القبلية وإرساء دعائم السلم الاجتماعي [3]

---

[1] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 17.
[2] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 48.
[3] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 133.

لقد كان للزاوية البيضاء دور حاسم في رسم الهيكل التنظيمي للحركة السنوسية. ففيها تم إعداد الجيل الأول من الدعاة و الإخوان الذين تشربوا المنهج السنوسي القائم على اتباع الكتاب والسنة، ونبذ البدع، والجمع بين العبادة والعمل. ومن هذه الزاوية، بدأ الإمام السنوسي في إرسال مبعوثيه إلى مختلف مناطق ليبيا والصحراء الكبرى لنشر الدعوة وتأسيس زوايا جديدة على غرار الزاوية الأم [1]

تميز التنظيم الإداري للزوايا السنوسية بدقة متناهية؛ حيث كان يُعين على رأس كل زاوية شيخ (يُسمى المقدم) يتولى الإرشاد الديني وفصل الخصومات، ويُعاونه وكيل مكلف بالشؤون الاقتصادية وإدارة الأراضي الزراعية وتجارة القوافل [2] هذا النظام اللامركزي، المرتبط روحياً وتنظيمياً بالقيادة في الزاوية البيضاء، مكن الحركة من الانتشار السريع والفعال في أوساط القبائل التي وجدت في السنوسية بديلاً مؤسسياً يُلبي احتياجاتها الروحية والمادية، ويُعوض غياب سلطة الدولة [3]

ولم يقتصر نشاط الزاوية البيضاء على الجانب الدعوي والاجتماعي فحسب، بل اتسع ليشمل الجانب الأمني والدفاعي. فقد كان الإمام السنوسي، بوعيه الاستراتيجي،

حرص على أن تكون الزوايا مراكز للتدريب والاستعداد الجهادي. وكان يحث أتباعه على اقتناء الأسلحة والتدرب على الفروسية، لتكون الزوايا حصوناً منيعة تدافع عن ديار الإسلام عند الحاجة [4]

بفضل هذا التأسيس المتين والرؤية الشمولية للإمام محمد بن علي السنوسي، أصبحت الزاوية البيضاء النموذج الأمثل الذي احتُذي به في بناء شبكة واسعة من الزوايا السنوسية التي غطت برقة، وطرابلس، وفزان، وامتدت لاحقاً لتشمل مصر، والحجاز،

[1] محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 12.
[2] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 124.
[3] محمود الشنيطي، المرجع السابق، ص 43.
[4] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 22.

وعمق الصحراء الإفريقية حتى السودان الأوسط (تشاد) [1] لقد شكلت هذه الزوايا في مجملها دولة موازية، تدير شؤون أتباعها بكفاءة عالية، وتُسهم في إحياء النشاط التجاري عبر مسارات القوافل الصحراوية التي كانت الزوايا تُشكل محطات آمنة لها.

ورغم النجاح الكبير الذي حققته الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر، فإن تزايد النفوذ العثماني في المناطق الساحلية، والتحولات السياسية الإقليمية، دفعت الإمام السنوسي لاحقاً، وتحديداً في عام 1272هـ (1856م)، إلى اتخاذ قرار استراتيجي بنقل مركز قيادة الحركة من الزاوية البيضاء إلى واحة الجغبوب في أقصى الجنوب الشرقي لبرقة [2] كان الهدف من هذا الانتقال هو التوغل أكثر في عمق الصحراء، بعيداً عن أعين السلطات العثمانية والتدخلات الأجنبية المحتملة، والاقتراب من المناطق الإفريقية الوثنية لنشر الإسلام فيها.

ومع ذلك ظلت الزاوية البيضاء تحتفظ برمزيتها ومكانتها التاريخية كأول معهد ومؤسسة انطلقت منها الدعوة السنوسية في شمال إفريقيا. لقد أثبت تأسيس هذه الزاوية مدى قدرة الإمام السنوسي على ترجمة أفكاره الإصلاحية العميقة إلى واقع مؤسسي عملي، استطاع من خلاله إحداث تغيير جذري في البنية الاجتماعية والثقافية للقبائل الليبية، ووضع الأسس المتينة لمقاومة وطنية إسلامية شرسة ستواجه الاستعمار الإيطالي في العقود اللاحقة [3]

---

[1] مصطفى عبد الله بعيو، المرجع السابق، ص 41.
[2] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 22.
[3] إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 224.

المبحث الثالث : جهوده في الإصلاح بين القبائل

لقد أدرك الإمام محمد بن علي السنوسي، بفضل بصيرته وتأمله العميق في أحـوال العالم الإسلامي، أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من توجيه المجتمعات وتنقيتها مـن رواسـب الجهل والتخلف. وعندما قرر الاستقرار في برقة وتأسيس الزاوية البيضاء ، لـم يكـن اختياره لهذا المكان عشوائياً، بل جاء بناءً على قراءة دقيقة للواقع الاجتماعي والسياسـي. فقد كانت القبائل في تلك المناطق تعيش حالة من التمزق والفرقة، وتتسم حياتهـا بطـابع البداوة القاسي، حيث غابت عنها المعالم الصحيحة للدين الإسـلامي، وانتشـرت بينهـا النزاعات القبلية المستمرة. وقد وجد السنوسي في هذه القبائل مجتمعاً يحتاج إلـى إعـادة بناء روحي واجتماعي، بعيداً عن سيطرة السلطة العثمانية التي لم يكن نفوذهـا يتجـاوز المناطق الساحلية [1]

بدأ الإمام مشروعه الإصلاحي بالتقرب من هذه القبائل، متبنيـاً أسـلوب الحكمـة والموعظة الحسنة. وقد لاحظ أن البدو في برقة وما جاورها، رغم شدة تمسكهم بعـاداتهم المتوارثة وما يعيشونه من جهل عام، يمتلكون فطرة نقية تقبل الحق متى ما عُرض عليها بأسلوب صادق ومخلص. ولذلك عمل على استقطاب زعماء العشائر وشـيوخ القبائـل، وجعلهم شركاء في مشروعه الإصلاحي، متجاوزاً بذلك أساليب الإكراه أو الفرض بالقوة [2]

كان التحدي الأكبر أمام الإمام السنوسي هو تحويل هذه التجمعات القبلية المتنـاحرة إلى أمة واحدة، تدين بالولاء لتعاليم الإسلام الصحيحة. ومن هنا، ركز جهوده في مراحله الأولى على نشر التعليم الأساسي، وتحفيظ القرآن الكـريم، وإرسـاء قواعـد الأخـلاق الفاضلة. وقد ساهم هذا النهج السلمي والتربوي في جذب أعداد هائلة من أبنـاء القبائـل

[1]محمود الشنيطي، المرجع السابق، ص 47.
[2]مصطفى عبد الله بعيو، المرجع السابق، ص 90.

الذين توافدوا على الزاوية البيضاء لينهلوا من علم الإمام ويرتبطوا بدعوته، مما شكل النواة الأولى لمجتمع قبلي متماسك [1]

اعتمد الإمام السنوسي في إصلاحه بين القبائل على منهج ديني وتربوي متكامل، يرتكز في جوهره على توحيد العقيدة والعودة الصارمة إلى أحكام الكتاب والسنة. فقد أدرك أنه لا يمكن إحداث تقارب حقيقي بين القبائل المتنافرة إلا من خلال رابطة أقوى من رابطة الدم والنسب، وهي رابطة العقيدة الإسلامية الصافية. ولذلك سعى إلى تنقية معتقدات البدو مما علق بها من خرافات وبدع، موجهاً إياهم نحو الالتزام بالفرائض واجتناب المحرمات [2]

ولكي يضمن نجاح دعوته ورسوخها في نفوس أبناء القبائل، اعتمد الإمام على تطبيق الأحكام الشرعية في حياتهم اليومية. فلم يكتفِ بالوعظ النظري، بل عمل على تفعيل مبدأ الأخوة في الله ، جاعلاً منه أساساً لإنهاء الثارات والنزاعات القبلية التي كانت تفتك بالمجتمع. وقد أورثت هذه التربية الدينية شعوراً عميقاً بالمحبة والود والاحترام بين أفراد القبائل المختلفة، وتحولت ولاءاتهم من العصبية القبلية الضيقة إلى رحاب الانتماء الواسع للدين الإسلامي [3]

وقد عبرت المصادر التاريخية عن حجم التحول الجذري الذي أحدثه هذا المنهج الإصلاحي في صفوف القبائل، فقد تحولت مجتمعات البادية من التقاتل والسلب إلى مجتمعات محبة للعلم والعمل، تدرك قيمة السلم الاجتماعي. ويصف الشاعر أبو سيف هذا التحول الكبير في قومه مبيناً كيف انتقلوا من حالة الاستباحة والجهل إلى حالة ارتداء لبوس العلم والمعرفة، بفضل الجهود التربوية المتواصلة التي بذلتها الدعوة السنوسية بين مضاربهم [4]

---

[1] علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 18.
[2] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 140.
[3] علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 21.
[4] علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 18.

لقد اتخذ الإمام السنوسي من الزاوية البيضاء وما تلاها من زوايا، مؤسسات عملية لتطبيق مشروعه الإصلاحي بين القبائل. فلم تكن الزاوية مجرد مكان للعبادة، بل كانت محكمة لفض النزاعات، ومدرسة لتعليم الأطفال والكبار، ومركزاً لتقديم الخدمات الاجتماعية. وقد اشترط الإمام عند تأسيس أي زاوية وسط القبائل شروطاً صارمة تضمن تحقيق الأمن والسلام؛ من أهمها أن يكون للزاوية حَرَمٌ كبير يحيط بها من كل الجهات، يُعد مكاناً آمناً لمن دخله واستجار به [1]

كان من القواعد الأساسية التي فرضها السنوسي داخل حرم الزاوية، المنع البات لإطلاق الرصاص، أو افتعال المشاجرات، أو رفع الأصوات بالخصام. هذا التنظيم الدقيق جعل من الزوايا السنوسية واحات للأمن والاستقرار في قلب بيئة صحراوية مضطربة. وعندما كانت تنشب أية خلافات بين أفراد القبائل، كانوا يلجؤون إلى شيخ الزاوية الذي يتولى الفصل في خصوماتهم بحكم الشريعة الإسلامية، مما ساهم في ترسيخ مفهوم العدالة وإلغاء القوانين العرفية الجائرة التي كانت سائدة بينهم [2]

علاوة على ذلك حرص الإمام على أن يبعث إلى القبائل دعاة ومبعوثين يمتلكون مهارات متنوعة؛ فلم يقتصر دورهم على التوجيه الديني فحسب، بل شمل أيضاً مهارات البناء، والزراعة، والحرف اليدوية. وكان الهدف من ذلك هو نقل القبائل من حالة البداوة والرعي غير المستقر، إلى حالة الاستقرار والارتباط بالأرض، مما يقلل من دوافع الغزو والسلب التي كانت تنشأ غالباً بسبب الحاجة والفقر وعدم الاستقرار المكاني [3]

إلى جانب الإصلاح الديني والاجتماعي أولى الإمام السنوسي اهتماماً بالغاً بالإصلاح الاقتصادي بين القبائل، لإدراكه التام بأن الفقر وعدم توفر مقومات الحياة المستقرة هما المحركان الأساسيان للنزاعات القبلية. لذلك نظم الهيكل الإداري للزوايا

[1] علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 121.
[2] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 22.
[3] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 133.

بطريقة تخدم التنمية الاقتصادية المحلية. فقد كان يُعين في كل زاوية، إلى جانب الشيخ المكلف بالإرشاد الديني والقضاء، مسؤولاً آخر يُعرف بـ الوكيل ، تنحصر مهمته في الإشراف على الدخل والخرج، والنظر في شؤون زراعة الأراضي ورعاية المواشي [1]

شجع السنوسي أبناء القبائل على احتراف الزراعة وممارسة التجارة، ووجههم نحو الاهتمام بالأرض واستصلاحها. وكانت الزوايا تقوم بتوفير البذور والأدوات الزراعية للأهالي، وتشرف على استثمار الموارد المحلية. هذا التحول نحو الإنتاج الزراعي والتجاري أحدث ثورة حقيقية في نمط حياة القبائل؛ إذ ساعد على توطينهم حول الزوايا، وحولهم من قبائل رحل تعتمد على الغزو، إلى مجتمعات منتجة تساهم في تأمين طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء [2]

وقد شدد الإمام في توجيهاته للقبائل على أهمية الكسب الحلال والتعفف عن أموال الناس، وكان يغرس في نفوسهم قيم الاعتماد على الذات والعمل اليدوي. ومن خلال هذا الإصلاح الاقتصادي المرتبط بالتربية الروحية، تمكنت الحركة السنوسية من تحقيق اكتفاء ذاتي للزوايا والمجتمعات المحيطة بها، مما عزز من استقلالية القبائل، وحفظ كرامتها، وأبعدها عن الحاجة التي كانت تدفعها للتناحر، ليتشكل بذلك مجتمع متعاون تسوده قيم التكافل والتضامن [3]

تُوجت جهود الإمام محمد بن علي السنوسي في الإصلاح بين القبائل بنجاح باهر، تجلى في توحيد صفوفها وخلق ولاء مشترك يجمعها تحت راية الإسلام الخالص. لقد تمكنت الحركة السنوسية، عبر تأسيس الزاوية البيضاء وما تفرع عنها من زوايا أخرى، من إيجاد إدارة محلية بديلة وفعالة، ساعدت على حفظ الأمن، وتوطيد العلاقات الإنسانية والتجارية بين مختلف المكونات القبلية في برقة والصحراء الكبرى [4]

---

[1]سعود دحدي، المرجع السابق، ص 22.
[2]علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 11-12.
[3]علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 121.
[4]مصطفى عبد الله بعيو، المرجع السابق، ص 41.

ولم يقف طموح الإمام عند حدود الإصلاح الداخلي وتحقيق السلم الاجتماعي، بل امتد إلى بناء وعي سياسي وجهادي لدى هذه القبائل. فعندما استشعر الخطر الاستعماري المحدق بالعالم الإسلامي، وظف حالة الاستقرار والوحدة التي حققها بين القبائل لتهيئتهم لمرحلة الدفاع عن الديار. فأمر مشايخ الزوايا بضرورة الاستعداد، واقتناء الأسلحة، وتخزين الذخائر، محذراً القبائل من تبديد طاقاتها وقوتها في النزاعات الداخلية أو في الاحتفالات الترفيهية، وموجهاً هذه الطاقات نحو الاستعداد لمواجهة الأعداء المتربصين [1]

وهكذا أثبتت التجربة السنوسية أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من بناء الفرد وتوحيد المجتمع على أسس متينة من العقيدة والعمل. وقد غدت القبائل التي كانت بالأمس القريب مضرباً للمثل في التناحر والتخلف، درعاً حصيناً للإسلام، وقوة فاعلة في نشر الدعوة وحماية الثغور. لقد سجل التاريخ للسنوسي الكبير عبقريته في ترويض البادية، وتحويل طاقاتها من الهدم إلى البناء، ليترك خلفه مجتمعاً قبلياً واعياً ومنظماً، كان له الفضل الأكبر في قيادة حركة الجهاد ضد الاستعمار في العقود التي تلت وفاته [2]

[1] محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 131.
[2] علي عبد اللطيف حميدة، المرجع السابق، ص 121.

خلاصة الفصل الثالث

إن الإمام محمد بن علي السنوسي كان قوة تغيير حقيقية، إن صفاته الشخصية من زهد، وشجاعة وعلم، كانت هي الوقود الذي حرك أثره العميق في بنية المجتمع الإسلامي. لقد استطاع تحويل التصوف إلى حركة عمل وبناء، والاجتهاد إلى وسيلة لنهضة الأمة، والزاوية إلى قلعة للصمود والعلم، مما جعل منه واحداً من أعظم المصلحين في العصر الحديث.

السنوسية و خصائصها و ملامح فكر الشيخ

المبحث الأول: خصائص الحركة السنوسية

المبحث الثاني: فكر السنوسي وشخصيته ومؤلفاته، وفاته

المبحث الأول : خصائص الحركة السنوسية

أولا : الأسس الفكرية

تعد الحركة السنوسية من أبرز الحركات الإصلاحية والتجديدية التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، حيث لم تكن مجرد طريقة صوفية تقليدية تكتفي بالزوايا والأوراد، بل مثلت مشروعاً إسلامياً متكاملاً يجمع بين الفقه والتصوف والعقيدة. لقد نشأت هذه الحركة في ظروف اتسمت بالضعف العام للأمة الإسلامية، وتزايد الخطر الاستعماري الأوروبي، وانتشار الجهل والبدع بين المجتمعات. وفي ظل هذا الواقع، برزت حقيقة الدعوة السنوسية كحركة إصلاحية تستهدف إعادة بناء الفرد والمجتمع على أسس إسلامية صحيحة، معتمدة في ذلك على التربية الروحية والتعليم الشرعي [1]

لقد صيغت حقيقة هذه الحركة على فهم شامل للإسلام، حيث جمعت بين العملين الدعوي والجهادي. وتميزت بكونها دعوة خالية من الشركيات والخرافات، كالتوسل بالأموات والتعلق بالأضرحة، وهي ممارسات كانت شائعة في بعض الطرق الصوفية في ذلك العصر. وقد أدرك مؤسسها الإمام محمد بن علي السنوسي أن إصلاح حال الأمة لا يتحقق إلا بالعودة إلى المنابع الصافية للدين، متحرراً من الأخطاء والانحرافات التي شابت مسار بعض الحركات الدينية السابقة. ومن هنا، اعتمدت السنوسية منهجاً متوازناً يرتقي بالمسلم في جوانبه الروحية والعلمية والعملية [2]

إن الخصائص التي ميزت الحركة السنوسية جعلتها تتفرد بتنظيم دقيق يختلف عن غيرها من الحركات المزامنة لها. فقد اعتمدت على تأسيس الزوايا لتكون مراكز إشعاع علمي واجتماعي، ولم تقتصر على الجانب التعبدي المحض. وبذلك شكلت السنوسية جيلاً

[1]ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 141.
[2]عائشة لوصيف، المرجع السابق، ص 91.

قادراً على نشر الإسلام في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية، وفي الوقت ذاته، هيأت كتائب قادرة على الجهاد ومقاومة النفوذ الأجنبي بالقوة المسلحة عند الضرورة، مما جعلها حركة فريدة في جمعها بين العلم والعبادة والجهاد [1]

تستند الحركة السنوسية في بنيانها الفكري إلى جملة من الأسس الواضحة التي صاغها الإمام السنوسي، والتي شكلت دستوراً لأتباعه من بعده. ويأتي في مقدمة هذه الأسس الدعوة إلى وحدة العقيدة، حيث أدرك الإمام أنه لا يمكن قيام نهضة أو وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة صحيحة خالية من الشوائب. وقد رأى أن هذه العقيدة يجب أن تستمد حصراً من كتاب الله وسنة رسوله، وأن سلامة الاعتقاد هي الركيزة الأساسية لإقامة مجتمع مترابط قادر على مواجهة الفتن والتحديات الخارجية [2]

ومن الأسس الفكرية الراسخة للحركة، تحكيم الكتاب والسنة في كافة شؤون الحياة، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات. لقد حرص الإمام السنوسي على تعليم الناس الأحكام الشرعية كهدف أولي، نظراً لانتشار الجهل وقلة الالتزام بالدين في تلك الحقبة. وكان يعتقد جازماً أن المسلمين لا يمكن أن يحققوا العزة والنصر في الدنيا، ولا النجاة في الآخرة، إلا بالرجوع الصادق إلى مصادر التشريع الأولى، وجعلها المرجعية الوحيدة في الفصل في الخصومات وتنظيم الحياة الاجتماعية [3]

إلى جانب ذلك ركزت السنوسية على مبدأ صدق الانتماء إلى الإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة ومنهاج حياة. وقد رُبي أتباع الطريقة على الاعتزاز بهذا الدين ونبذ كل ما يخالفه، مع التأكيد على أن المسلمين، متى ما التزموا بهذا المنهاج، سيشكلون أمة واحدة متماسكة. هذا الانتماء الصادق كان يمثل قوة دافعة للمريدين لنشر تعاليم الإسلام في

[1] أنور الجندي، المرجع السابق، ص 222.
[2] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 140.
[3] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 47.

المناطق الوثنية، وتوسيع دائرة الدعوة بعيداً عن التعصبات القبلية أو العرقية التي كانت تمزق المجتمعات آنذاك [1]

من أبرز الأسس الفكرية التي تميزت بها الحركة السنوسية هو تحري الحق وفتح باب الاجتهاد، ورفض التقليد الأعمى والتعصب المذهبي. لقد كان الإمام السنوسي يرى أن إغلاق باب الاجتهاد كان من أهم أسباب تراجع الأمة وتفرقها. ولذلك دعا صراحة إلى ضرورة العمل بالكتاب والسنة في المجال الفقهي، رافضاً حالة الجمود التي أوجبها بعض المتأخرين حين أجبروا الناس على الالتزام الحرفي بمذهب واحد دون غيره [2]

وقد تجلى هذا الأساس الفكري بوضوح في مؤلفات الإمام، ولا سيما في كتابه إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن . في هذا الكتاب، أسس السنوسي تأصيلاً شرعياً لوجوب الاجتهاد، مبيناً أن المذاهب الفقهية إنما هي اجتهادات بشرية في فهم النصوص، وأنها ليست ملزمة التزاماً أعمى إذا تعارضت مع حديث صحيح. ورغم انتمائه للمذهب المالكي، إلا أنه خالفه في مسائل عدة عندما ترجح لديه الدليل من السنة النبوية، وهو مسلك اتبعه شيوخ الحركة من بعده [3]

إن هذا الانفتاح الفكري لم يكن يعني الانتقاص من قدر الأئمة والعلماء السابقين، بل كان الإمام يجلهم ويعتذر لهم إن وجد لهم قولاً يخالف الحديث، مؤكداً أنهم لم يتعمدوا مخالفة السنة. وقد أكسب هذا المنهج الحركة السنوسية مرونة كبيرة، وجعلها حركة قادرة على التجديد والتأقلم، بعيداً عن العصبية التي قيدت الأفكار والعقول في عصره. وكانت هذه الدعوة للاجتهاد أداة فعالة لتحرير العقول وتوحيد الصفوف على أساس الدليل الشرعي [4]

---

[1]علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 101.
[2]يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 47.
[3]يوسي الهواري، نفس المرجع ، ص 51
[4]عائشة لوصيف، المرجع السابق، ص 94.

تتميز الحركة السنوسية في أسسها الفكرية بكونها تجمع بين السلفية في العقيدة والتصوف في السلوك، فقد أرساها مؤسسها على مبدأ الربانية المتمثلة في طريقة صوفية منضبطة تلتزم التزاماً دقيقاً بمنهج الكتاب والسنة. ولم يرفض الإمام السنوسي التصوف بالجملة، بل عمل على تقويمه وتنقيته من الشطحات والغلو، مؤكداً أن الصوفي الحقيقي هو من يتقيد بالشرع في أقواله وأحواله، وأن أعمال القوم يجب أن توزن بميزان الشريعة المحمدية [1]

بناءً على ذلك اختطت السنوسية لنفسها خصائص صوفية معتدلة، حيث منعت الممارسات التي كانت شائعة في بعض الطرق الأخرى، مثل استخدام الطبول والآلات الموسيقية، والرقص والإنشاد في حضرات الذكر. كما منعت أتباعها من الأعمال التي تخرج عن حد الاعتدال، واستبدلت ذلك بالتركيز على تلاوة القرآن الكريم، وكثرة الاستغفار، والصلاة على النبي. وقد جعل هذا التوجه المعتدل من السنوسية طريقة مقبولة لدى طيف واسع من العلماء وعامة الناس [2]

ومن خصائص هذا التصوف السنوسي أنه لم يدعُ إلى العزلة والانقطاع السلبي عن الحياة، بل ربط بين التزكية الروحية والعمل الدنيوي المثمر. فالزوايا السنوسية لم تكن مجرد خلوات للذكر، بل كانت مراكز للزراعة والتجارة والصناعة. وكان الإمام يحث مريديه على الكسب الحلال والتعفف، رافضاً فكرة الاتكال على هبات الناس وصدقاتهم، مما أسهم في بناء شخصية مسلمة متوازنة تجمع بين صفاء الروح وقوة العمل والإنتاج [3]

من الأسس الفكرية والسياسية البارزة للحركة السنوسية، والتي ميزتها عن غيرها من الحركات المعاصرة لها، هي الرؤية السياسية المعتدلة القائمة على سياسة عدم المواجهة مع الاتجاهات الإسلامية الأخرى، وعلى رأسها الخلافة العثمانية. فقد أدرك

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 212.
[2] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 141.
[3] سعود دحدي، المرجع السابق، ص 54.

الإمام السنوسي أن الدخول في صراعات سياسية داخلية لن يخدم مصلحة الإسلام، بل سيؤدي إلى تفريق الكلمة وتشتيت الجهود. لذلك تجنبت الحركة الاصطدام بالدولة العثمانية، واعتقدت بصحة خلافتها، وحرصت على بناء علاقات طيبة مع ولاتها في الأقاليم التي نشطت فيها [1]

إلى جانب هذه الحكمة السياسية ركزت السنوسية في أسسها على تحقيق مبدأ الأخوة الإسلامية بين أفراد المجتمع. وقد تجلى ذلك في قدرة الحركة على التوفيق بين القبائل المتنازعة، وإرساء دعائم السلم الاجتماعي في بيئات بدوية كانت تتسم بالعصبية والحروب المستمرة. لقد أورثت هذه الأخوة المبنية على تقوى الله شعوراً عميقاً بالمحبة والود بين أتباع الطريقة، مما مكن الحركة من تشكيل جبهة داخلية موحدة قادرة على الصمود أمام التحديات [2]

إن الأسس الفكرية للحركة السنوسية مثلت مزيجاً فريداً من الدعوة إلى نقاء العقيدة، وفتح باب الاجتهاد، والتصوف السني المنضبط، والوعي السياسي الحكيم. هذا البناء الفكري المتين هو ما منح السنوسية قدرتها الهائلة على الانتشار السريع في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى، وجعل منها قوة إصلاحية قادرة على نشر العلم، ومحاربة الجهل، وتكوين قاعدة شعبية متماسكة وقفت لاحقاً كحائط صد منيع في وجه التمدد الاستعماري الأوروبي [3]

ثانيا : الآثار التعليمية والاجتماعية للحركة السنوسية

شكلت الحركة السنوسية في جوهرها مشروعاً إصلاحياً شاملاً، لم يقتصر على الجانب الروحي فحسب، بل اتخذ من التعليم وسيلة أساسية لتغيير الواقع الاجتماعي في العالم الإسلامي. وقد انطلقت هذه الرؤية من فلسفة مؤسسها الإمام محمد بن علي

---

[1] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 47.
[2] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 140.
[3] أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 41.

السنوسي، الذي رأى في الزاوية السنوسية نواةً لمجتمع حضاري متكامل، يجمع بين العبادة والعمل والعلم. ولم تكن الزاوية في المنهج السنوسي مجرد مكان للاعتكاف أو الانقطاع عن الحياة، بل صُممت لتكون خلايا حية تمتد في نسيج المجتمع؛ لتوجيه الحياة العامة توجيهاً سديداً، يحفظ العقيدة الصحيحة ويواجه مظاهر الانحراف والخرافة التي سادت في تلك الحقبة التاريخية.

إن المتأمل في البناء التنظيمي للحركة يجد أن الزاوية السنوسية قد تحولت إلى مؤسسة تعليمية واجتماعية واقتصادية، تهدف إلى إصلاح الإنسان من الداخل ليكون لبنة صالحة في بناء الأمة.

وقد اتسمت هذه الزوايا بانتشارها المدروس في المناطق التي تفتقر إلى مراكز التعليم الرسمية، خاصة في الأرياف والمناطق الصحراوية، حيث كانت تعمل كمراكز إشعاع ديني وحضاري. ومن هنا، يمكن القول إن الأثر التعليمي للحركة السنوسية كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتحول الاجتماعي؛ إذ كان التعليم هو القنطرة التي عبرت من خلالها القبائل البدوية من حالة التشتت والجهل إلى حالة الاستقرار والتنظيم الاجتماعي القائم على أحكام الشريعة.

لقد استطاع الإمام السنوسي من خلال خبرته العلمية التي اكتسبها في مراكز العلم الكبرى كجامع القرويين بفاس والأزهر بمصر، أن يمزج بين دقة العلم الشرعي وبين البساطة التي يتطلبها الوعظ الاجتماعي. وهذا التمازج هو الذي منح الحركة السنوسية قوتها التأثيرية في المجتمعات القبلية، حيث لم يعد العلم حبيس المتون والكتب، بل أصبح منهجاً للحياة اليومية، ينظم علاقة الفرد بخالقه وبمجتمعه، ويحثه على عمارة الأرض من خلال الربط بين العلم والعمل المنتج[1].

[1] عتامنة نجاة ودموش لامية، شخصية محمد بن علي السنوسي وفكره الإصلاحي، مذكرة ماستر، جامعة البويرة، ص 59.

اعتمد المنهج التعليمي السنوسي على تسييد الكتاب والسنة كمصدرين أساسيين للتشريع والفكر، مع نبذ التقليد الأعمى ودعوة العلماء والمتعلمين إلى فتح باب الاجتهاد. وقد تجلى هذا الأثر التعليمي بوضوح في مؤلفات الإمام السنوسي، وعلى رأسها كتابه إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ، الذي يُعد تأصيلاً شرعياً لفكر الشيخ الإصلاحي فمن خلال هذا الكتاب سعى السنوسي إلى تنبيه العلماء والمتعلمين إلى أن المذاهب الفقهية ما هي إلا فهم بشري، وأن الواجب هو الرجوع إلى الأصول الصافية، مما أحدث ثورة تعليمية في كيفية تعاطي الطلبة مع النصوص الشرعية، بعيداً عن التعصب المذهبي الذي كان سبباً في ركود الفكر الإسلامي لقرون[1]. .

ولم يكتفِ المنهج التعليمي السنوسي بالعلوم الشرعية التقليدية، بل توسع ليشمل العلوم العصرية التي تخدم عمارة الأرض. فقد كان الإمام السنوسي يرى أن التعليم يجب أن يكون شاملاً، وهو ما طبقه في رحلته العلمية بفاس، حيث قرأ الهندسة والحساب والهيئة والطبيعة إلى جانب العلوم الدينية.

وانعكس هذا التوجه على الزوايا السنوسية التي أصبحت تخرج أفراداً يجمعون بين العلم الشرعي والمهارات المهنية، مما أدى إلى خلق طبقة اجتماعية متعلمة قادرة على قيادة مجتمعاتها محلياً في مجالات القضاء، والتدريس، وحتى التجارة والزراعة.

كما حرصت الحركة على تعليم الأطفال والشباب في الكتاتيب التابعة للزوايا، حيث لم يكن التعليم يقتصر على الحفظ المجرد، بل كان يرافقه تربية سلوكية تهدف إلى غرس قيم الأخوة والتعاون.

وقد ساهم هذا النظام التعليمي المنضبط في محو الأمية في مناطق شاسعة من ليبيا والصحراء الكبرى، وحول الزوايا إلى مراكز جذب للباحثين عن المعرفة من مختلف

[1]عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 59.

الجنسيات، مما عزز من دور الحركة كقوة تعليمية عالمية عابرة للحدود، تربط بين المشرق والمغرب برباط العلم والوحدة الفكرية[1].

أما على الصعيد الاجتماعي فقد لعبت الحركة السنوسية دوراً محورياً في تحقيق السلم الأهلي والاستقرار بين القبائل المتناحرة، فقد كانت الزاوية السنوسية تُبنى باتفاق مع القبائل المحلية، وتُخصص لها مساحات من الأراضي (حرم الزاوية) تُعتبر مناطق آمنة يُحظر فيها الاقتتال أو رفع السلاح. هذا النظام الاجتماعي الصارم ساهم في تحويل المجتمعات البدوية من حياة الغزو والترحال غير المنظم إلى حياة الاستقرار، حيث أصبح شيخ الزاوية بمثابة الحكم والوسيط في النزاعات القبلية، مستنداً في أحكامه إلى الشريعة الإسلامية التي تضمن العدالة للجميع.

ومن أبرز الآثار الاجتماعية للحركة السنوسية هو تحقيق مبدأ الأخوة الإسلامية الذي يتجاوز الروابط القبلية والعرقية. فقد استطاع الإمام السنوسي أن يجمع في زواياه بين العربي، والبربري، والإفريقي، والحجازي، مما خلق نسيجاً اجتماعياً موحداً يقوم على وحدة العقيدة لا على وحدة النسب. وقد تجسد هذا في تعيين شيوخ الزوايا، حيث كان المعيار هو العلم والتقوى والكفاءة، بغض النظر عن الأصول الاجتماعية، مما شجع أفراد القبائل على التنافس في تحصيل العلم للوصول إلى مراتب القيادة والريادة داخل الحركة.

كذلك ساهمت الحركة في دمج المجتمعات المهمشة في المنظومة الاجتماعية الكبرى، خاصة في مناطق جنوب الصحراء. فمن خلال الدعوة السنوسية، اعتنقت قبائل وثنية عديدة الإسلام، ليس فقط كدين، بل كنظام اجتماعي متكامل يمنحهم هوية جديدة وحماية قانونية واقتصادية. وقد تميز الأسلوب السنوسي في هذا السياق بالحكمة والموعظة الحسنة، بعيداً عن الإكراه، مما جعل الناس يقبلون على الانخراط في الزوايا

[1] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 140.

طواعية، لما وجدوا فيها من عدل وأمان ورعاية اجتماعية لم تكن تتوفر لهم في ظل النظم القبلية السابقة أو السلطات المركزية الضعيفة[1].

ارتبط الأثر الاجتماعي للسنوسية ارتباطاً وثيقاً بالجانب الاقتصادي، وهو ما يُعرف في المنهج السنوسي بـ العمل المنتج كجزء من العبادة . فقد حارب الإمام السنوسي التواكل والفقر، وكان يقول لأتباعه: الذهب في الأرض فغوصوا لاستخراجه بالمحراث . هذا التوجه دفع الزوايا السنوسية إلى استصلاح الأراضي الموات، وحفر الآبار، وغرس الأشجار، مما أدى إلى نشوء مجتمعات زراعية مستقرة حول الزوايا. وقد ساهم هذا النشاط الاقتصادي في تعزيز الأمن الغذائي لتلك المناطق، وحول الزوايا إلى مراكز تجارية هامة على طرق القوافل، حيث كانت توفر الحماية والخدمات للمسافرين والتجار.

لقد أدت هذه النهضة الزراعية والتجارية إلى تغيير البنية الطبقية للمجتمع، حيث ظهرت فئة من الإخوان السنوسيين الذين يجمعون بين الفلاحة والتدريس والجهاد. هذا النمط من الحياة الاجتماعية خلق توازناً فريداً بين الاحتياجات المادية والمتطلبات الروحية، مما جعل المجتمع السنوسي مجتمعاً مكتفياً ذاتياً، وقادراً على الصمود أمام الضغوط الخارجية. فالزاوية لم تكن تأخذ من الناس، بل كانت تعطي وتنتج، مما عزز من هيبتها ومكانتها الاجتماعية في نفوس القبائل التي رأت في السنوسية مخلصاً من الفقر والجهل.

كما شجعت الحركة الصناعات اليدوية والحرف، خاصة تلك المرتبطة باحتياجات المجتمع اليومية والدفاعية، مثل صناعة المنسوجات والأدوات الزراعية وحتى البارود والسلاح. هذا التنوع المهني أدى إلى حراك اجتماعي واسع، حيث أصبح للشباب فرص للتعلم والعمل داخل محيطهم المحلي، مما قلل من الهجرة والنزاعات القائمة على الموارد

[1] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 52.

الشحيحة. وبذلك قدمت السنوسية نموذجاً للتنمية الاجتماعية المستدامة القائمة على التعليم المهني والنشاط الاقتصادي الموجه بقيم دينية أخلاقية[1].

يمكن القول إن الآثار التعليمية والاجتماعية للحركة السنوسية قد تجاوزت حدود الزمان والمكان لترسم ملامح نهضة إسلامية حديثة قامت على أسس متينة. فقد نجحت الحركة في بناء إنسان مسلم واعٍ بحقوقه وواجباته، متسلح بالعلم والعمل، ومرتبط بقيم الجماعة والأخوة. إن التحول الذي أحدثته السنوسية في المجتمعات الليبية والصحراوية لم يكن مجرد تغيير في الشعائر التعبدية، بل كان إعادة بناء شاملة للهوية الاجتماعية والفكرية، مما مكن تلك المجتمعات فيما بعد من الوقوف بصلابة أمام التحديات الاستعمارية الكبرى.

لقد استطاعت السنوسية عبر شبكة زواياها الممتدة من الحجاز إلى أدغال إفريقيا، أن تخلق فضاءً ثقافياً واجتماعياً موحداً، يسوده النظام والعلم والإنتاج. وبقيت مدرسة الجغبوب وغيرها من الزوايا منارات للعلم تُخرج أجيالاً من العلماء والقادة الذين حملوا لواء الإصلاح والجهاد. إن هذا التراث التعليمي والاجتماعي يثبت أن الحركات الإصلاحية الأصيلة هي تلك التي تبدأ بتغيير العقول والنفوس، وتوفر الحلول العملية لمشاكل الناس اليومية، وهو ما نجحت فيه السنوسية بامتياز عبر المواءمة بين النص الشرعي والواقع الاجتماعي.

إن تجربة السنوسية تظل مصدراً ملهماً للدراسات الأكاديمية والمنهجية في تاريخ الإصلاح الإسلامي، فهي لم تكن مجرد طريقة صوفية بالمعنى التقليدي، بل كانت دولة تعليمية واجتماعية سبقت عصرها في التنظيم والتدبير. ومن هنا، تكمن أهمية دراسة آثارها في فهم كيفية استعادة الأمة لحيويتها من خلال التعليم الممنهج والترابط الاجتماعي الوثيق القائم على قيم العدل والحرية والعمل المنتج[2].

---

[1] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 44.
[2] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 51.

ثالثا : الآثار السياسية

لم تكن الحركة السنوسية مجرد طريقة صوفية انزوائية تنشد الخلاص الفردي عبر الأوراد والأذكار فحسب، بل مثلت مشروعاً إصلاحياً شاملاً استهدف استنهاض الكيان الإسلامي سياسياً واجتماعياً. وقد تجلت الآثار السياسية للحركة منذ وقت مبكر في قدرة مؤسسها، الشيخ محمد بن علي السنوسي، على صياغة رؤية استراتيجية تتجاوز الحدود الجغرافية الضيقة، لتشمل عمق الصحراء الكبرى وحواضر المغرب والمشرق على حد سواء. إن البعد السياسي في فكر السنوسي انبثق من إدراكه العميق لحالة الضعف التي اعترت الدولة العثمانية، والتحديات الاستعمارية التي بدأت تلوح في الأفق، مما دفعه إلى تبني منهجية تقوم على الاستقلال الفكري والتنظيمي كتمهيد للاستقلال السياسي.

لقد كان من أبرز الآثار السياسية الأولية للحركة السنوسية نجاحها في توحيد الشتات القبلي ؛ إذ كانت القبائل العربية والبربرية في مناطق برقة وطرابلس وفزان تعيش حالة من الصراع الدائم والنزاعات البينية. فعملت السنوسية عبر نظام الزوايا على تحويل هذه الطاقات القبلية المتناحرة إلى قوة سياسية منظمة تدين بالولاء للفكرة والمبدأ قبل الولاء للقبيلة. هذا التحول لم يكن اجتماعياً فحسب، بل كان تأسيساً لكيان سياسي موازٍ استطاع ملء الفراغ الإداري الذي تركه ضعف السلطة المركزية العثمانية في تلك الأقاليم النائية. وبذلك تحولت الزاوية السنوسية من مؤسسة دينية تعليمية إلى مركز إداري وقضائي يفصل في الخصومات ويضبط الأمن، وهو ما يعد جوهر العمل السياسي المنظم[1].

ارتبط الأثر السياسي للحركة السنوسية ارتباطاً وثيقاً بنظام الزوايا الذي لم يكن مجرد بناء معماري، بل كان بمثابة خلايا سياسية وإدارية ممتدة. فمن الناحية التنظيمية، خضع تقسيم الزوايا لتخطيط استراتيجي دقيق يراعي طرق القوافل التجارية ومناطق الثقل

[1]علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 48.

القبلي، مما سمح للحركة بالإشراف الفعلي على مساحات شاسعة من الصحراء. وبحسب الوثائق التاريخية، فإن الزاوية السنوسية كانت تدير شؤون القبيلة وتفصل في النزاعات، مما جعل شيخ الزاوية يقوم بمقام الحاكم المحلي الذي يربط الرعية بالقيادة المركزية في الجغبوب.

علاوة على ذلك أدت الحركة السنوسية دوراً محورياً في حماية الأمن التجاري، وهو أثر سياسي ذو أبعاد اقتصادية. فبتأمين طرق القوافل الممتدة من بنغازي إلى أدغال أفريقيا، استطاعت الحركة كسب ولاء التجار وشيوخ القبائل، مما عزز من مكانتها كقوة ضابطة للنظام العام.

هذا الاستقرار الذي أوجدته السنوسية دفع السلطات العثمانية في مراحل معينة إلى الاعتراف بهذا الواقع السياسي، عبر منح الزوايا السنوسية إعفاءات ضريبية وحقوقاً في جباية الزكاة الشرعية ، وهو اعتراف ضمني بكونها إدارة بديلة تمتلك من الشرعية الشعبية ما لا تمتلكه الإدارة المركزية في طرابلس. وبذلك مثلت السنوسية نموذجاً فريداً لسلطة سياسية نابعة من رحم المجتمع، تقوم على التوازن بين العمل الديني والواجب المدني المنظم[1].

اتسمت العلاقة السياسية بين الحركة السنوسية والدولة العثمانية بنوع من الواقعية السياسية الذكية. فعلى الرغم من أن السنوسي الكبير كان يرى في الخلافة العثمانية ضرورة لوحدة الأمة في مواجهة الأطماع الأوروبية، إلا أنه حافظ على استقلالية حركته بعيداً عن التجاذبات السياسية داخل البلاط العثماني. ويتجلى هذا الأثر السياسي في سياسة عدم المواجهة مع الخلافة، مع العمل الدؤوب على بناء قاعدة شعبية صلبة في الدواخل والواحات.

[1] محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 14.

لقد أدرك الإمام السنوسي أن الاصطدام بالسلطة العثمانية سيؤدي إلى تمزيق الصف الإسلامي، فآثر بناء كيان سياسي موازٍ ينمو في صمت، بعيداً عن مراكز الرقابة في السواحل والمدن الكبرى.

أثمر هذا المنهج السياسي عن نتائج استراتيجية بعيدة المدى؛ إذ أصبحت الحركة السنوسية هي الوسيط السياسي الوحيد بين الدولة العثمانية والقبائل الصحراوية. فكانت الخلافة تلجأ للسنوسيين لتهدئة الاضطرابات أو لضمان ولاء بعض المناطق النائية.

ومع انتقال مركز القيادة إلى الجغبوب ثم الكفرة اكتملت ملامح الدولة السنوسية ككيان يمتلك عاصمة، وجيشاً من المتطوعين (الإخوان)، ونظاماً قضائياً مستقلاً، وشبكة اتصالات واسعة. إن هذا التحول من الدعوة إلى الدولة يعد من أبرز الآثار السياسية التي خلفتها عبقرية الشيخ محمد بن علي السنوسي، حيث استطاع خلق سيادة وطنية حقيقية في ظل وجود رسمي صوري للدولة العثمانية[1].

لا يمكن قراءة الآثار السياسية للحركة السنوسية بمعزل عن دورها النضالي في مواجهة المد الاستعماري. فقد كان الفكر السنوسي يقوم على الربط بين العقيدة والجهاد ، مما جعل الزوايا تتحول إلى قلاع عسكرية عند الحاجة. ويظهر هذا الأثر بوضوح في موقف الشيخ السنوسي من الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ حيث لم يكتفِ بالدعم الروحي، بل أرسل تلاميذه بالأموال والعتاد، وحرض أتباعه في الصحراء الجزائرية على المقاومة المسلحة. إن الوثائق الفرنسية ذاتها تؤكد أن السنوسية كانت تشكل العائق الأكبر أمام طموحات فرنسا في التوغل نحو الصحراء الكبرى وأفريقيا الوسطى.

لقد تجلى الأثر السياسي الجهادي في قدرة الحركة على تعبئة قبائل الطوارق و التبو و الشعانبة ضمن استراتيجية دفاعية موحدة. ولم تكن السنوسية تنظر للجهاد كفعل عسكري عشوائي، بل كان فعلاً سياسياً منظماً يهدف إلى حماية دار الإسلام من

[1] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 49.

التجزئة. هذا الدور النضالي جعل من السنوسية رقماً صعباً في السياسة الدولية آنذاك، حيث اضطرت القوى الاستعمارية (فرنسا، إيطاليا، وبريطانيا) إلى دراسة بنية هذه الحركة ومحاولة تحجيم نفوذها. وبذلك انتقلت السنوسية من إطارها الإقليمي لتصبح حركة تحرر وطني ذات صبغة إسلامية عالمية، استطاعت الحفاظ على استقلال أجزاء واسعة من الصحراء لعدة عقود ضد أقوى الجيوش الأوروبية[1].

إن الآثار السياسية للحركة السنوسية شكلت العمود الفقري لتاريخ ليبيا الحديث والمنطقة الصحراوية. فمن خلال دمج القبائل في إطار تنظيمي واحد، ووضع أسس إدارية واقتصادية متينة، استطاعت الحركة تحويل الصحراء من فضاء جغرافي ممزق إلى كيان سياسي وازن . ولم يقتصر أثرها على الجوانب الدفاعية فحسب، بل امتد ليشمل صناعة النخبة السياسية ؛ إذ تخرج من الزوايا السنوسية قادة ورجال دولة استطاعوا لاحقاً قيادة دفة الحكم والمفاوضات الدولية من أجل الاستقلال.

إن التجربة السياسية للسنوسية أثبتت أن الإصلاح الديني إذا ما اقترن برؤية تنظيمية محكمة، فإنه قادر على تغيير الواقع الجيوسياسي. لقد تركت الحركة وراءها إرثاً سياسياً يقوم على الشرعية المستمدة من العمل والإصلاح ، وهي التجربة التي تحولت مع مرور الزمن من حركة دعوية إلى نظام ملكي دستوري وحد ليبيا تحت راية واحدة. إن هذا الامتداد التاريخي يؤكد أن الحركة السنوسية لم تكن ظاهرة عابرة، بل كانت مشروعاً سياسياً متكاملاً استهدف صون الهوية الإسلامية وبناء سيادة وطنية صلبة في مواجهة التحديات الكبرى التي عصفت بالعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر وما تلاه[2].

[1] محمد الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 81.
[2] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 39.

المبحث الثاني: فكر السنوسي وشخصيته ومؤلفاته، وفاته

تمثل شخصية الشيخ محمد بن علي السنوسي نموذجاً فريداً للمصلح الذي جمع بين التحصيل العلمي المعمق وبين العمل الحركي المؤسس، فلم يكن مجرد فقيهٍ حبيس المتون، بل كان صاحب رؤية تجديدية تستهدف انتشال الأمة من واقع الركود الفكري والتبعية المذهبية العمياء، وهو ما انعكس بشكل جلي في سماته الشخصية ونتاجه المعرفي الذي سنفصله في هذا المبحث.

أولاً: ملامح شخصيته وسماته النفسية والعلمية

اتسمت شخصية الإمام السنوسي بمزيج من الصفات الربانية والقيادية؛ فمن الناحية الأخلاقية عُرف بزهده الشديد في الدنيا وترفعه عن حطامها، فكان يقسم وقته بين العبادة والتعلم والعمل اليدوي، إيماناً منه بأن اليد العليا خير من اليد السفلى[1] كما تجلت في شخصيته سمة التواضع والترفع عما في أيدي الناس، حيث يُروى أنه في بداية دخوله مكة اشتغل بسقاية الماء (زمزم) تذللاً لله تعالى وخدمةً لبيته الحرام، وهو ما يعكس منهجاً تربوياً يهدف إلى كسر حظوظ النفس قبل التصدي لقيادة الخلق[2]

وعلى الصعيد العلمي تميز السنوسي باستقلال فكري قل نظيره في عصره، حيث لم يحصر نفسه في نطاق التقليد المذهبي، بل كان يرى أن الحق يدور مع الدليل الشرعي حيثما دار، فكان مالكياً في أصوله لكنه مجتهد في فروع كثيرة إذا تبين له وجه السنة بخلاف مشهور المذهب[3]

[1]عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 84.
[2]عتامنة نجاة ودموش لامية، نفس المرجع ، ص 85.
[3]يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 41.

ثانياً: الأسس الفكرية والمنهج الإصلاحي

انبثق فكر الشيخ السنوسي من ضرورة العودة إلى النبعين الصافيين: الكتاب والسنة، فكان يرى أن سبب انحدار الأمة يكمن في تعطيل باب الاجتهاد والركون إلى التقليد الذي أورث الجمود[1] وقد ارتكز منهجه الإصلاحي على عدة دعائم، أهمها وحدة العقيدة وفق منهج أهل السنة والجماعة، و تحكيم الكتاب والسنة كمرجعية عليا في القضاء والسلوك الاجتماعي، بالإضافة إلى تحقيق الأخوة بين القبائل لإذابة الفوارق الجاهلية وتوحيد الصف لمواجهة الأخطار الخارجية[2]

ولم يكتفِ السنوسي بالتنظير الفكري، بل جعل الزاوية هي الأداة التنفيذية لمشروعه؛ فحولها من مكان للانقطاع والذكر فقط إلى مؤسسة تعليمية، واقتصادية، وعسكرية، تهدف إلى تكوين المسلم المتكامل الذي يجمع بين العلم والفروسية والعمل المهني[3]

ثالثاً: مؤلفاته المطبوعة

رغم انشغال الشيخ السنوسي بالرحلات الدعوية وبناء الزوايا، إلا أنه ترك ثروة علمية كبيرة تعكس غزارة علمه، ومن أهم مؤلفاته المطبوعة التي تداولها العلماء والطلبة:

المنهل الروي الرائق في أسانيد العلم وأصول الطرائق وفيه ذكر أسانيد روايته لكتب السنة والفقه، استجابةً لطلبة العلم الراغبين في معرفة طرقه واتصاله بالأئمة[4]

السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين وتحدث فيه عن السلاسل الصوفية الموجودة في زمانه، مبيناً أوجه الاتفاق والاختلاف، مع التشديد على ضرورة تقيد التصوف بضوابط الشريعة[1]

---

[1] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 46.
[2] عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 48-51.
[3] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 47.
[4] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 45.

الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية وهو كتاب يعنى بالأنساب والتاريخ المتعلق بآل البيت والأدارسة[2]

المسلسلات العشرة في الأحاديث النبوية ويتناول فيه أحاديث مروية بصفة معينة في السند، مما يدل على اهتمامه بعلوم الحديث دراية ورواية.

صفاته وأثرها

السمات الشخصية والأخلاقية للإمام السنوسي

تميز الإمام السنوسي بصفات ذاتية جعلت منه قائداً روحياً ومربياً فذاً. فقد نشأ يتيماً في حجر عمته السيدة فاطمة بمدينة مستغانم بالجزائر، وهي التي غرست فيه بذور التقوى وحب العلم منذ نعومة أظفاره[3] وقد انعكست هذه النشأة على تكوينه الأخلاقي، حيث عرف بالزهد الشديد والورع، والترفع عما في أيدي الناس، فكان يدعو أتباعه دوماً إلى الكسب الحلال والعمل اليدوي، مشدداً على أن اليد العليا خير من اليد السفلى [4]

ومن أبرز صفاته الأخلاقية الحلم والعفو عند المقدرة، ويظهر ذلك جلياً في تعامله مع خصومه من العلماء الذين ناصبوه العداء حسداً أو جهلاً، فكان يقابل إساءتهم بالدعاء لهم بالصلاح[5] كما تميز بالتواضع الجم، إذ يروى أنه كان يباشر العمل اليدوي مع مريديه في بناء الزوايا، ضارباً المثل في كسر حاجز الكبر والترفع[6]

السمات الخِلقية

لم تكن شخصية السنوسي قوية في جانبها الروحي فحسب، بل كان يتمتع بحضور بدني مهيب. تذكر المصادر التاريخية أنه كان أزهر اللون، مدور الوجه، أقنى الأنف،

---

[1]عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 37.
[2]يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 45.
[3]يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 41.
[4]علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 222.
[5]ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 140.
[6]عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 86.

خفيف العارضين واللحية، معتدل القامة، جهوري الصوت [1] هذا الحضور كان يمنحه هيبة في نفوس مريديه، ومودة في قلوب من جالسه.

وإلى جانب العلم، كان السنوسي فارساً ماهراً يجيد فنون الرماية والفروسية، وهي خصلة ورثها عن والده السيد علي. وكان يخصص جزءاً من يومه لتدريب أتباعه على الفروسية، مؤكداً أن الاستعداد البدني هو جزء أصيل من إعداد الأمة لمواجهة الأخطار الخارجية[2] هذا المزيج بين العالم الفقيه و الفارس المقاتل أضفى على شخصيته طابعاً عملياً تجاوز حدود قاعات التدريس والمساجد إلى ميادين التربية الشاملة.

المنهج الفكري الإصلاحي

قام فكر الإمام السنوسي على ركيزة أساسية وهي تحكيم الكتاب والسنة . فقد عاصر الإمام حالة من التعصب المذهبي والجمود الفكري، فجاءت دعوته لفتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد الأعمى[3] ولم يكن اجتهاده نابعاً من فراغ، بل من سعة اطلاع على المذاهب الأربعة ومشارب التصوف السني، مما جعله يؤسس لمنهج يجمع بين تصفية النفس و تحقيق الدليل الشرعي [4]

أثر الإمام في محاربة التقليد والجمود

كان للإمام السنوسي أثر بالغ في تصحيح المسار الفقهي في عصره. فمن خلال كتابه الشهير إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ، بسط رؤيته حول وجوب العودة إلى النص الأصلي وعدم حصر الحق في مذهب واحد. وقد تسبب هذا الفكر الجريء في مضايقته بمدينة فاس ثم في الأزهر بمصر، حيث اتهمه بعض الفقهاء الجامدين بالخروج عن المألوف[5]

---

[1] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 141.
[2] عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 36.
[3] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 47.
[4] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 141.
[5] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 44.

ولم يقتصر أثر فكره على الجانب النظري، بل طبق الاجتهاد في ممارساته التعبدية، كرفعه ليديه في الصلاة وقبضهما، ومخالفته لمشهور المذهب المالكي في بعض المسائل متى ما ترجح لديه الدليل من السنة[1] هذا المنهج أحدث خلخلة في بنية الجمود الفكري، وأعاد لطلبة العلم الثقة في التعامل المباشر مع الوحيين، مما أدى إلى نشوء جيل من العلماء السنوسيين الذين يجمعون بين الورع الصوفي والتدقيق الحديثي[2]

كما تميز أثره الفكري بالشمولية؛ حيث لم يفصل بين العقيدة والعمل. فكان يرى أن وحدة الأمة تبدأ من وحدة العقيدة الصافية المستمدة من سلف الأمة، وهو ما ميز حركته عن كثير من الطرق الصوفية التي غرقت في البدع والخرافات في ذلك العصر[3]

الأثر الاجتماعي والمؤسساتي

يعد نظام الزوايا هو الأثر العملي الأبرز لشخصية السنوسي وفكره التنظيمي. فقد طور مفهوم الزاوية من مكان للذكر والانعزال إلى مؤسسة اجتماعية، تعليمية، اقتصادية، وعسكرية[4] انتشرت هذه الزوايا من مكة المكرمة (زاوية أبي قبيس) إلى الجبل الأخضر بليبيا (الزاوية البيضاء) وصولاً إلى أدغال إفريقيا.

وكان لهذه الزوايا آثار اجتماعية عميقة منها:

حيث شجع السنوسي القبائل على الاستقرار حول الزوايا لتعلم الدين والزراعة[5]

تحولت الزوايا إلى مراكز لفض النزاعات وحقن الدماء، مما أرسى دعائم السلم الاجتماعي في مناطق كانت تعيش حروباً قبلية مستمرة[6]

---

[1]عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 50.
[2]يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 49.
[3]ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 141.
[4]ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 135.
[5]عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 62.
[6]علي محمد الصلابي، الثمار الزكية، المرجع السابق، ص 92.

غرس السنوسي في أتباعه حب العمل، فكانت الزوايا مراكز زراعية وتجارية كبرى، مما حقق اكتفاءً ذاتياً للحركة وجعلها مستقلة عن عطايا الحكام[1]

إن هذا الأثر المؤسساتي يعكس شخصية إدارية فذة استطاعت ربط هذه الزوايا بمركز القيادة في الجغبوب عبر نظام بريد واتصال دقيق، مما جعل الحركة السنوسية أشبه بدولة داخل دولة [2]

الأثر السياسي والجهادي

كان لشخصية السنوسي أثر سياسي متزن؛ فقد حرص على عدم الاصطدام مع الدولة العثمانية باعتبارها مظلة الخلافة، مع الحفاظ على استقلال حركته الدعوي[3] وفي الجانب الجهادي، كان السنوسي يرقب بعين البصيرة الأطماع الاستعمارية في المنطقة، فعمل على إعداد أتباعه عسكرياً وتخزين السلاح في الزوايا[4]

ولم ينعزل السنوسي عن قضايا وطنه الأم الجزائر، بل كان يرسل المال والسلاح لدعم مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، وحرض أتباعه في الصحراء على قتال الفرنسيين[5] هذا الحس الجهادي انتقل إلى أبنائه وأحفاده من بعده، حيث شكل مريدو الزوايا النواة الأولى للمقاومة ضد الغزو الإيطالي في ليبيا لاحقاً[6]

---

[1] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 141.
[2] عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 60.
[3] عتامنة نجاة ودموش لامية، المرجع السابق، ص 65.
[4] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 192.
[5] يوسي الهواري، المرجع السابق، ص 44.
[6] ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 139.

رابعا : وفاة الإمام محمد بن علي السنوسي

توفي الإمام محمد بن علي السنوسي في يوم الأربعاء، الأول (وفي رواية الثاني) من شهر صفر سنة 1276هـ، الموافق لـ 7 سبتمبر 1859م، عن عمر ناهز الرابعة والسبعين عاماً

وقد بدأت رحلة وفاته حين اشتد عليه المرض في شهر شعبان من عام 1275هـ، حيث صارع الألم بصبر وقوة عزيمة، مستشعراً دنو أجله، مما دفعه للتمهيد لتولي ابنه محمد المهدي قيادة الحركة من بعده [1]

دُفن الإمام السنوسي في زاوية الجغبوب بليبيا، ولا يزال قبره هناك مزاراً يستذكر فيه أتباعه تاريخ حياته وهدف دعوته [2] ونظراً لصغر سن ولديه (محمد المهدي ومحمد الشريف) عند وفاته، فقد ترك الإمام وصية بالوصاية عليهما للسيد أحمد عبد القادر الريفي بالاشتراك مع السيد عمران بن بركة الفيتوري، اللذين قاما بالمهمة حتى استطاع السيد المهدي الإشراف بنفسه على التركة الإصلاحية [3]

[1] علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 24.
[2] مصطفى بعيو، المرجع السابق، ص 43.
[3] علي محمد محمد الصلابي، المرجع نفسه، ص 25.

خاتمة

نتائج الدراسة

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج :

1. صُقلت شخصية السنوسي عبر تزاوج فريد بين البيئة الجزائرية التي غرست فيه روح الفروسية والاعتماد على النفس، وبين جامعة القرويين بفاس التي منحته العمق الفقهي والعقلي، وصولاً إلى الحجاز حيث نضجت رؤيته الإصلاحية القائمة على السنة والحديث.
2. أثبت السنوسي أن الإصلاح يبدأ بتحرير العقل المسلم من التقليد الأعمى؛ فكانت دعوته للاجتهاد والعودة للأصول (الكتاب والسنة) هي المحرك الأساسي لإعادة الحيوية للفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر.
3. لم تكن الزاوية السنوسية مكاناً للانقطاع السلبي، بل كانت مؤسسة شاملة (مسجد، مدرسة، محكمة، ضيعة زراعية، وقلعة عسكرية)، وهو ما مكنها من ملء الفراغ الإداري والأمني في مناطق شاسعة من الصحراء وبرقة.
4. حققت الحركة ما عجزت عنه السلطات المركزية، وهو توحيد القبائل المتناحرة وإحلال رابطة الأخوة الإسلامية محل العصبية القبلية، مما حول المجتمع من حالة الغزو إلى حالة الإنتاج والاستقرار.
5. حافظ الإمام على توازن دقيق في علاقته بالخلافة العثمانية، مع الحفاظ على استقلالية مشروعه، وظلت بوصلته موجهة نحو مقاومة الاستعمار، مما جعل السنوسية حائط الصد الأول في شمال إفريقيا.
6. ربط السنوسي بين العبادة والعمل المنتج، وحول الزهد من ترك الدنيا إلى عمارتها بالزراعة والتجارة، مما وفر استقلالاً اقتصادياً حمى الحركة من التبعية السياسية.

بناءً على النتائج السابقة نوصي بالآتي:

1. نوصي الباحثين بضرورة الاهتمام بالتراث المخطوط للإمام السنوسي وتحقيقه، لا سيما في جوانبه المتعلقة بالاجتهاد الفقهي، كونه يمثل جسراً بين الأصالة والتجديد.
2. تدعو الدراسة المؤسسات التعليمية والدعوية إلى استلهام نموذج الزاوية السنوسية في الربط بين التعليم الشرعي والتأهيل المهني والتربية السلوكية، لمواجهة ظاهرة الانفصام بين العلم والعمل.
3. نوصي بإجراء دراسات اجتماعية وقانونية حول أساليب السنوسية في الإصلاح بين القبائل، للاستفادة منها في حل النزاعات المحلية في المناطق الصحراوية والقبلية المعاصرة.
4. نوصي الجهات المعنية في ليبيا والجزائر بترميم وصيانة الزوايا السنوسية (كالزاوية البيضاء) باعتبارها معالم حضارية توثق مرحلة هامة من تاريخ المقاومة والإصلاح.
5. ندعو إلى إجراء بحوث تقارن بين الحركة السنوسية والحركات الإصلاحية المعاصرة لها (كالمهدية والوهابية)، لإبراز الخصائص الفريدة للمنهج السنوسي القائم على التصوف السني العملي.
6. يبقى الإمام محمد بن علي السنوسي رمزاً للمسلم الذي لم يقعد به اليتم أو الغربة عن تحقيق أمجادٍ لأمته، وستظل حركته مدرسةً ملهمة في كيفية بناء الإنسان وتعمير الأوطان بمداد العلم وعرق العمل.

قائمة المصادر و المراجع

أولاً: الكتب

1. أحمد الصدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها وتطورها في القرن التاسع عشر، دار لبنان للطباعة والنشر، 1967 .

2. الزهار أحمد الشريف، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1754–1830م)، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

3. الأشهب محمد الطيب بن إدريس، السنوسي الكبير، مطبعة محمد عاطف، القاهرة، 1994.

4. بعيو مصطفى عبد الله، دراسات في التاريخ الليبي، الجمعية التاريخية لخريجي كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1968.

5. الحشائشي محمد بن عثمان، رحلة الحشائشي إلى ليبيا، تحقيق: علي مصطفى المصراتي، دار لبنان، بيروت، 1965.

6. الدجاني أحمد صدقي، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1967.

7. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.

8. شكري محمد فؤاد، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، بيروت، 1948.

9. علي بن عبد الله نعاس، تنبيه الأحفاد بمناقب الأجداد، مطبعة الرويغي، ط2، 2016 .

.10

11. الشنيطي محمود، قضية ليبيا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951.

12. الصلابي علي محمد محمد، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 2005.

13. الصلابي علي محمد محمد، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا، دار المعرفة، بيروت، 2005.

14. العربي إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

ثانياً: المذكرات

1. دحدي سعود، البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية 1842-1931، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر، 2010/2009.

2. عتامنة نجاة؛ دموش لامية، شخصية محمد بن علي السنوسي وفكره الإصلاحي، مذكرة ماستر، جامعة البويرة، الجزائر، 2021/2022.

ثالثاً: المقالات

1. إسماعيل زيان، نسخ المصاحف بمنطقة الجلفة خلال القرن التاسع عشر ، مجلة المعيار، مجلد 27، عدد 74، 2023 .

2. ميسوم ميلود، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، العدد 20، جوان 2018.

3. الهواري يوسي، الشيخ محمد بن علي السنوسي وكتابه إيقــاظ الوســنان، المجلــة الجزائرية للمخطوطات، جامعة وهران، العدد 02، جوان 2005.

رابعا : الكتب الاجنبية

1. R. Louis, Marabouts et khouan: étude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, 1884 .

الملاحق

الشيخ السنوسي

الزاوية السنوسية

خريطة توضح أهم مراكز وزوايا الحركة السنوسية في ليبيا

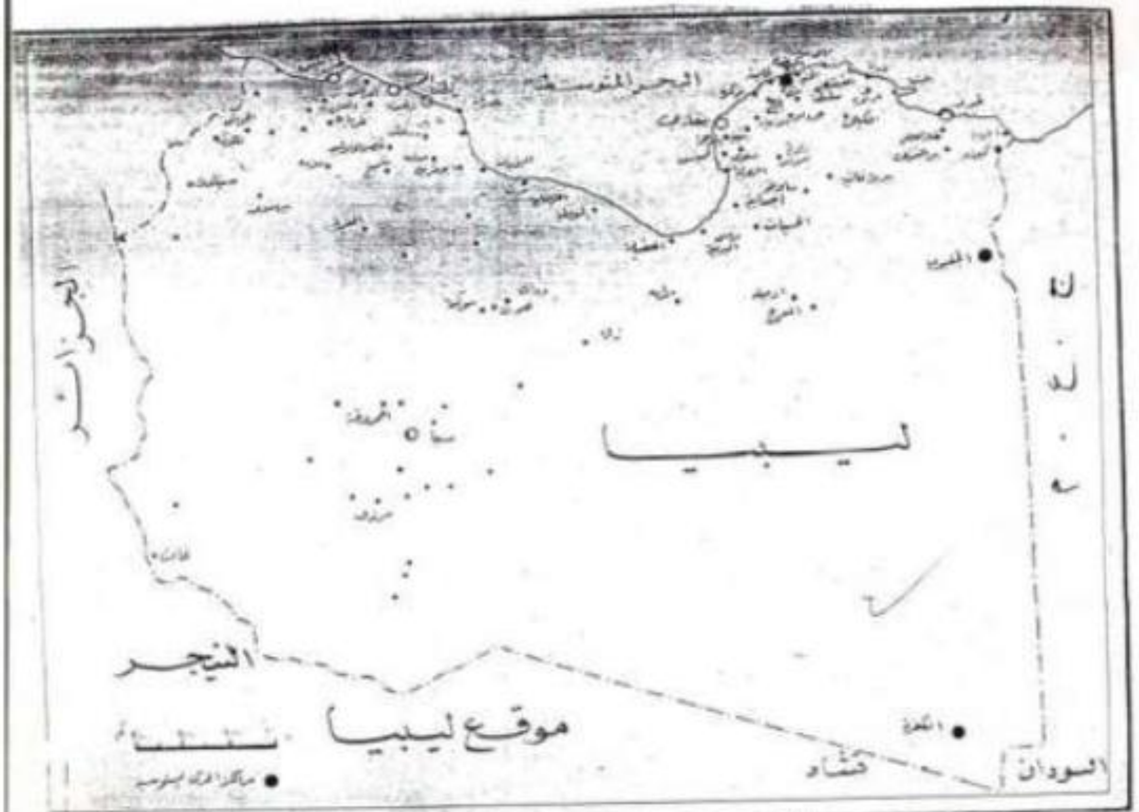

خريطة توضح أهم مراكز وزوايا الحركة السنوسية في ليبيا

مسجد الزاوية السنوسية بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام

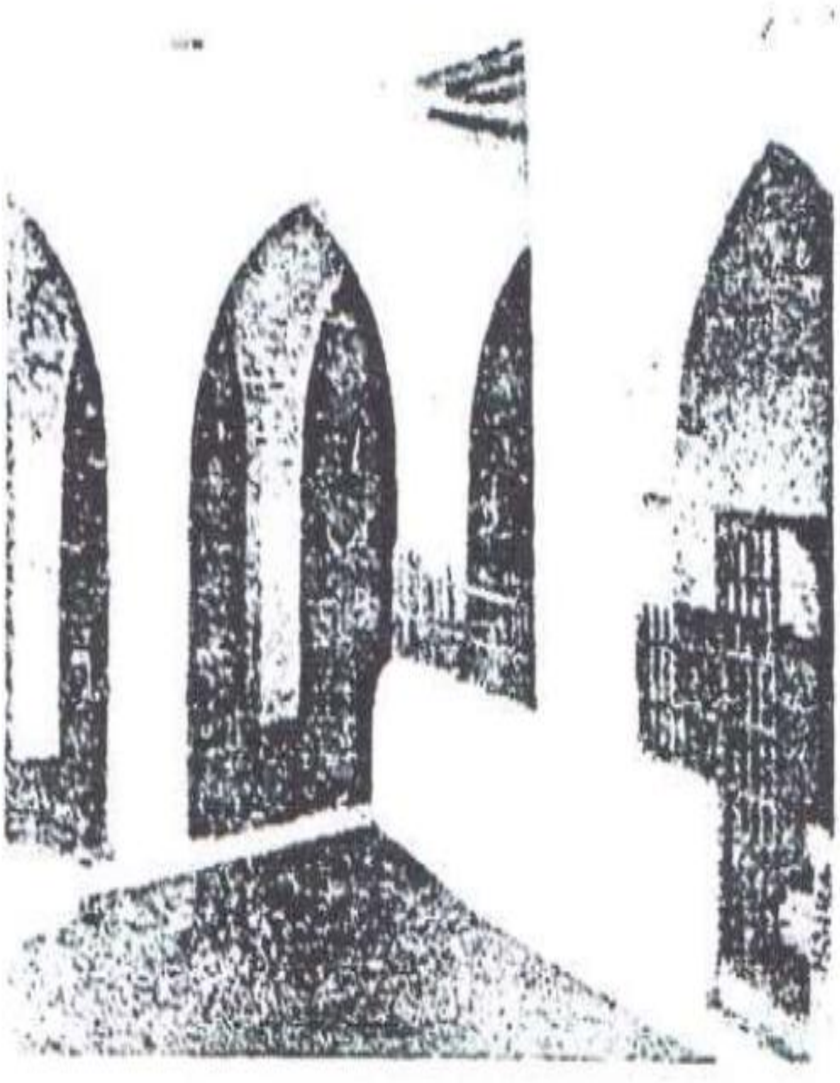

مسجد الزاوية السنوسية بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام

من مؤلفات محمد السنوسي

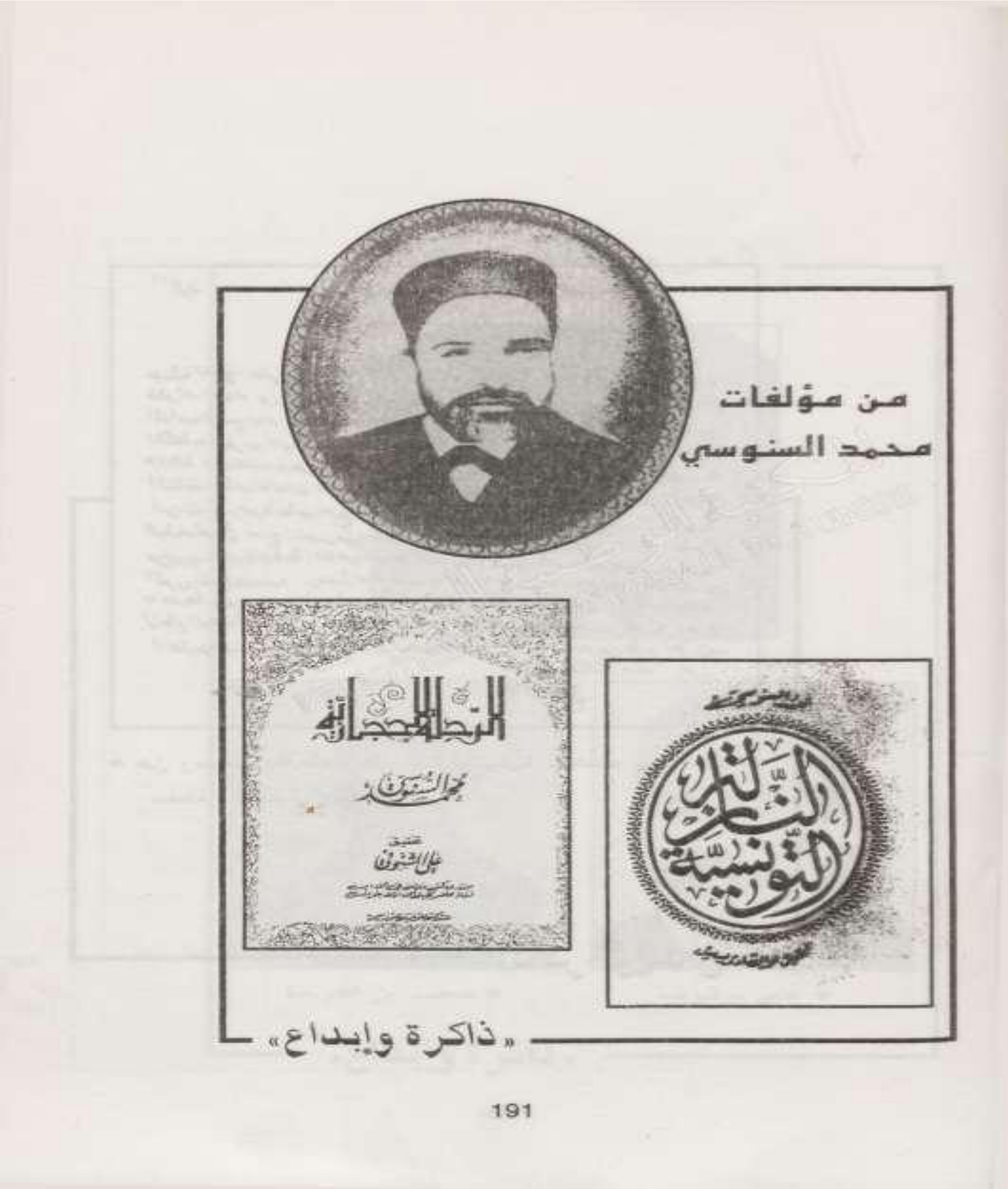

صفحة لإحدى مسودات كتب الإمام الأكبر السيد محمد بن علي السنوسي و هي بخط يده الكريمة

صفحة لإحدى مسودات كتب الأمام الأكبر السيد محمد بن على السنوسى وهى بخط يده الكريمة

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ
الفصل الأول: مرحلة التكوين في المغرب العربي (1787 - 1824م)	
المبحث الأول: النشأة والتعليم في الجزائر	09
المبحث الثاني: الرحلة إلى فاس	14
المبحث الثالث: الرحلة إلى مسعد	21
خلاصة الفصل الأول	26
الفصل الثاني: الرحلة إلى المشرق والمشروع الإصلاحي (1824 - 1841م)	
المبحث الأول: الطريق إلى الحجاز	29
المبحث الثاني: الإقامة في الحجاز وتأسيس أول زاوية	37
خلاصة الفصل الثاني	41
الفصل الثالث: الاستقرار في ليبيا	
المبحث الأول: العودة من الحجاز وأسباب اختيار برقة	44
المبحث الثاني: تأسيس الزاوية البيضاء (أم الزوايا) وآثارها	47
المبحث الثالث: جهود السنوسي في الإصلاح بين القبائل	54
خلاصة الفصل الثالث	59
الفصل الرابع: آثار الحركة السنوسية وخصائص فكر الشيخ	
المبحث الأول: خصائص الحركة السنوسية	62
المبحث الثاني: فكر السنوسي، شخصيته، ومؤلفاته، وفاته	75
خاتمة	**83**
قائمة المراجع	**86**
الملاحق	**90**

الملخص

شكلت الإمبراطورية العثمانية لقرون مديدة حامية الإسلام والمسلمين، بيد أنها بدأت تشهد تراجعاً ملحوظاً مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر الميلادي، وهو ما أسال لعاب القوى الاستعمارية الأوروبية للسيطرة على أقاليمها، لا سيما في شمال إفريقيا. وفي هذا المناخ المشحون بالاضطرابات السياسية والتحولات الاجتماعية، تضافر الجمود الفكري مع الفساد السياسي ليضع الأمة أمام منعطف تاريخي. وبينما كانت الحركة الوهابية تنشط في نجد، شهد المغرب العربي بزوغ الحركة السنوسية على يد الإمام المصلح محمد بن علي السنوسي، الذي حمل على عاتقه هموم الأمة، مؤسساً دعوة إسلامية شاملة مستمدة من الكتاب والسنة، انطلقت من ليبيا لتعمّ شمال إفريقيا والصحراء الكبرى.

يتمثل الإطار الزماني لهذا البحث في الفترة المفصلية الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر (ميلاد الإمام سنة 1787م) إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وهي المرحلة التي تزامنت مع ضعف التواجد العثماني في الجزائر وبدايات الغزو الفرنسي، وشهدت تشكل وبزوغ الطريقة السنوسية كقوة دينية واجتماعية وسياسية.

يهدف هذا البحث إلى دراسة المرتكزات الفكرية والمنهجية للمشروع الإصلاحي عند الإمام محمد بن علي السنوسي، وكيف انعكست هذه المرتكزات على واقع المجتمع والدولة في المغرب العربي والمشرق. تتناول الدراسة نشأته وتكوينه في الجزائر وفاس، ورحلته إلى المشرق وتأثره بالشيخ أحمد بن إدريس، ثم استقراره في برقة بليبيا وتأسيس الزاوية البيضاء كمركز لدعوته. كما يستعرض البحث الجهود الإصلاحية للسنوسي بين القبائل، والآثار التعليمية، والاجتماعية، والسياسية للحركة السنوسية.

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي لتتبع مسار حياة الإمام السنوسي وتحليل الأحداث وتسلسلها الزمني، والمنهج الوصفي التحليلي لتشخيص أفكاره الإصلاحية وتحليل أبعاد مشروعه الفكري والسياسي، ووصف البناء التنظيمي لشبكة الزوايا السنوسية.

الكلمات الافتتاحية :محمد بن علي السنوسي، الحركة السنوسية، الإصلاح الإسلامي، الزاوية البيضاء، المغرب العربي، الحجاز، ليبيا، القرن التاسع عشر، الجهاد.

Abstract

For centuries, the Ottoman Empire served as the protector of Islam and Muslims. However, it began to experience a noticeable decline in the late 18th and early 19th centuries, which enticed European colonial powers to seek control over its territories, especially in North Africa. In this climate of political turmoil and social transformations, intellectual stagnation combined with political corruption to bring the Ummah to a historical crossroads. While the Wahhabi movement was active in Najd, the Maghreb witnessed the emergence of the Sanusi movement led by the reformist Imam Muhammad ibn Ali al-Sanusi. He shouldered the concerns of the Ummah, establishing a comprehensive Islamic call rooted in the Quran and Sunnah, which began in Libya and spread across North Africa and the Sahara Desert.

The temporal framework of this research covers the pivotal period from the late 18th century (the Imam's birth in 1787 AD) to the mid-19th century, a phase that coincided with the weakening of Ottoman presence in Algeria and the beginning of the French invasion, and witnessed the formation and rise of the Sanusi Order as a religious, social, and political force.

This research aims to study the intellectual and methodological foundations of the reformist project of Imam Muhammad ibn Ali al-Sanusi and how these foundations impacted society and the state in the Maghreb and the Mashriq. The study covers his upbringing and education in Algeria and Fez, his journey to the Mashriq and his influence by Sheikh Ahmad ibn Idris, and his settlement in Cyrenaica, Libya, where he established the Zawiya al-Bayda as the center of his call. The research also examines al-Sanusi's reform efforts among the tribes, and the educational, social, and political impacts of the Sanusi movement.

The study adopted a historical approach to trace the life of Imam al-Sanusi and analyze events and their chronological sequence. It also utilized a descriptive-analytical approach to diagnose his reformist ideas, analyze the dimensions of his intellectual and political project, and describe the organizational structure of the Sanusi zawiya network.

Keywords: Muhammad ibn Ali al-Sanusi, Sanusi Movement, Islamic Reform, Zawiya al-Bayda, Maghreb, Hejaz, Libya, 19th Century, Jihad.